دكتور
علي حسن رضوان

# موسى الكليم في القرآن الكريم

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م


دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر / القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

إن قصص القرآن قد امتاز بسمو غاياته، وشريف مقاصده، كما اشتمل القصص على فصول فى الأخلاق مما يهذب النفوس، ويجمل الطباع، وينشر الآداب، وقد ساق الله القصة فى قول مبين، وأسلوب حكيم، ولفظ رائع يدعوهم إلى الإيمان الصحيح، ويرشدهم إلى العلم النافع بأحسن بيان وأقوم سبيل.

ووجدنا من الناس من هجر القصة القرآنية، واتجه إلى ماوضعه الناس من قصص فيها الحق والباطل وفيها الصحيح والزائف، ولعل هذا ليس عن سوء نية أو قصد العزوف عن الإفادة من كتاب الله، ولكن قد يخفى عليهم فى القصة معنى أو يعوزهم التأويل فلا يجدوا ضالتهم فيما بين أيديهم من كتب التفسير سهلة المنال، ميسورة الجنى، لأن بعض المفسرين جعلوا همهم بيان المذاهب النحوية، والنكات البلاغية، وبعضهم عنى بالأحكام واستنباطها، وآخرين وقفوا جهدهم على الشئون الكونية، والنواحى الفلسفية والتدليل عليها إلى غير ذلك، كما أن هناك بعضاً من المفسرين نهجوا فى تأويل القصة تأويلا صالحاً، وسلكوا مسلكا مقبولا، ولكن هذا لا يخرج عن آراء مبعثرة لا تسد حاجة القارىء.

واتجهت إلى قصة موسى الكليم فى القرآن الكريم، لأنها قصة الحاضر والمستقبل، وقسمتها إلى عدة فصول، وقد ابتعدت عن تعدد الآراء وتشعبها واقتصرت على القول الصحيح فى نظرى حتى لا أدخل القارىء

فى متاهة الآراء ، كما اقتصرت على القرآن الكريم والسنة الصحيحة دون اللجوء إلى كتب العهد القديم كالتوراة أو العهد الجديد كالإنجيل ، فليس لهما سند متصل ، كما أنها لم تخل من تحريف المحرفين خطأ أو عمداً ، فهذا ما إليه قصدت وعلى الله توكلت ، وهو الهادى إلى قصد السبيل .

المؤلف

د/ على حسن السيد رضوان

# الفصل الأول

## مرحلة الميلاد لموسى عليه السلام

### الهدف من ذكر قصة موسى عليه السلام

إن الهدف من ذكر القصة هو نفع المؤمنين لأنهم بإيمانهم أصبحوا متطلبين للعلم والحكمة ، متشوقين لأمثال هذا القصص النافع ليزدادوا بذلك يقيناً « نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » القصص (٣) ، وسوق تلك القصة إنما هو للعبرة والعظة ليعلم المشركون سنة الله في بعثة الرسل ومعاملته الأمم المكذبة لرسلها ، وكانت سورة القصص أوعب لأحوال نشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة .

### أسباب مجيء القصة والمفاسد التي جاءت من فرعون :

« إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين » سورة القصص آية ٤١ .

ابتدأت القصة بذكر أسبابها لتكون عبرة للمؤمنين يتخذون منها سنناً يعلمون بها علل الأشياء ومعلولاتها ، ويسيرون في شئونهم على طرائقها ، فلولا تجبر فرعون وهو من قبيح الخلال ما حل به وبقومه الاستئصال ، ولما خرج بنو اسرائيل من ذل العبودية ، وهذا مصداق المثل : مصائب قوم عند قوم فوائد ، وقوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

وصورت عظمة فرعون في الدنيا بقوله « علا في الأرض » لتكون

العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو أكبر العبر ، ومعنى العلو هنا التكبر وهو المذموم من العلو المعنوى كالذى فى قوله «نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض» ومعناه أن يستشعر نفسه عالياً على موضع غيره ليس يساويه أحد ، فالعلو مستعار لمعنى التفوق على غيره ، غير محقوق لحق من دين أوشريعة أو رعى حقوق المخلوقات معه ، فإذا استشعر ذلك لم يعبأ برعاية المصالح وتجنب المفاسد وإنما يتبع ما تحدوه إليه شهوته وإرضاء هواه ، وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلهاً وأنه ابن الشمس .

فليس من العلو المذموم رجحان أحد فى أمر من الأمور لأنه جدير بالرجحان فيه جرياً على سبب رجحان عقلى كرجحان العالم على الجاهل والصالح على الطالح ، والذكى على الغبى ، أوسبب رجحان عادى ، ويشمل القانون وهو كل رجحان لا يستقيم نظام الجماعات إلا بمراعاته كرجحان أمير الجيش على جنوده ورجحان القاضى على المتخاصمين .

وأعدل الرجحان ما كان من قبل الدين والشريعة كرجحان المؤمن على الكافر ، والتقى على الفاسق ويترجح فى كل عمل أهل الخبرة به والإجادة فيه وفيما وراء ذلك فالأصل المساواة .

وفرعون هذا هو رمسيس الثانى وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشر فى اصطلاح المؤرخين للفراعنة ، وكان فاتحاً كبيراً شديد السطوة ، وهو الذى ولد موسى عليه السلام فى زمانه على التحقيق .

وكان رمسيس الثانى فى أرض مصر جعل أهلها شيعا تتابعه وتطيعه وتنصره ، تتشيع كل فرقة إليه وتعادى الفرقة الأخرى ليتم لهم ضرب بعضهم ببعض ، وقد أغرى بينهم العداوة ليأمن تألبهم عليه ، كما يقال فرق تسد وهى سياسة لا تليق إلا بالمكر بالعدو ولا تليق بسياسة ولى أمر الأمة الواحدة .

وقد قسم بلاد مصر إلى ست وثلاثين ولاية وأقام على كل ولاية أمراء نوابا عنه ليتسنى له ما حكى عنه فى هـذه الآية بقوله « يستضعف طائفة منهم » ومافعل ذلك بهم إلا لأنه عدهم ضعفاء أى أذلة فكان يسومهم العـــذاب ويسخرهم لضرب اللبن والأعمال الشاقة ، وكانت الطائفة المستضعفة هى طائفة بنى إسرائيل .

وقد وصف القرآن فرعون بقوله « إنه كان من المفسدين » ليدل على شدة تمكن الإفساد من خلقه ، ذلك أن فعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة .

المفسدة الأولى : التكبر والتجبر فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته فيهم ، وسوء ظنه بهم ، وأن لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى مايرضى شهوته وغضبه ، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولى أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم ، والاجراء على دحض حقوقهم وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب المصالح لهم ودفع الضر عنهم وأن يبتز منافعهم لنفسه ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه وأن لا يلين لهم فى سياسة فيعاملهم بالغلظة وفى ذلك بث الرعب فى نفوسهم من بطشه وجبروته فهذه الصفة هى أم المفاسد وجماعهـــا ولذلك قدمت على مايذكر بعدها ثم أعقبت بأنه كان من المفسدين .

المفسدة الثانية : أنه جعل أهل المملكة شيعا وفرقهم أقساما وجعل منهم شيعا مقربين منه ويفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك وذلك فساد فى الأمة لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض ، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة عـــلى الفرق الأخرى ، وتكدح الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوظهم بإلقاء النميمة

والوشايات الكاذبة فيحلوا محل الآخرين ، وهكذا يذهب الزمان فى مكائد بعضهم لبعض فيكون بعضهم لبعض فتنة ، وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية منه كلها بمنزلة واحدة بمنزلة الأبناء من الأب يحب لهم الخير ويقومهم بالعدل واللين ، لاميزة لفرقة على فرقة ، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية .

المفسدة الثالثة : أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لامساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل فى معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى ، فى حين أن لها من الحق فى الأرض مالغيرها لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها .

والمراد بالطائفة بنو إسرائيل وقد كانوا قطنوا فى أرض مصر برضى ملكها فى زمن يوسف .

وأعطوا أرض جاسان وعمروها وتكاثروا فيها ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة فكان لهم من الحق فى أرض المملكة ما لسائر سكانها فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى « طائفة منهم » إذ جعلها من أهل الأرض الذين جعلهم فرعون شيعاً .

وأشار بقوله « طائفة » إلى أنه استضعف فريقا كاملا فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جاريا على أشخاص معينين لأسباب تقتضى استضعافهم ككونهم ساعون بالفساد أو ليسوا أهلا للاعتداد بهم لانحطاط فى أخلاقهم وأعمالهم بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية وذلك فساد لأنه يقرن الفاضل بالمفضول .

من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية أجرى شدته على أفراد

تلك الطائفة دون تمييز بين مستحق وغيره ، ولم يراع غير النوعية من ذكورة وأنوثة هي .

المفسدة الرابعة : أنه يذبح أبناءهم أي يأمر بذبح الذكور من الأطفال ،

وقصده من ذلك أن لا تكون لبنى إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة .

المفسدة الخامسة : أنه يستحيي النساء أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال ، فأطلق عليهن اسم النساء باعتبار المآل إيماء إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء فتصلحن لما تصلح له النساء وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج وإذ كان احتقارهن يصد قومه عن التزوج بهن فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة ، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء إذ كل ذلك اعتداء على الحق .

الإنعام على المستضعفين :

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (٥) ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (٦) سورة القصص

من العبر العظيمة في هذه القصة استحضار ذلك الوقت الذي يطغى فيه فرعون على المستضعفين والله يريد في ذلك الوقت إبطال عمل فرعون والانعام في المستقبل على المستضعفين المظلومين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .

وخص بالذكر من المن أربعة أشياء ، وهي : جعلهم أئمة ، وجعلهم

الوارثين ، والتمكين لهم فى الأرض ، وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم فى نعم أخرى جمة ستذكر فى حينها .

١ — فأما جعلهم أئمة فذلك بأن أخرجهم من ذل العبودية وجعلهم أمة حرة مالكة أمر نفسها لها شريعة عادلة وقانون معاملاتها وقوة تدفع بها أعداءها ، ومملكة خالصة لها وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرتها بحيث تصير قدوة للأمم فى شئون الكمال وطلب الهناء ، فهذا معنى جعلهم أئمة ، أى يقتدى بهم غيرهم ويدعون الناس إلى الخير وناهيك بما بلغه ملك إسرائيل فى عهد سليمان عليه السلام .

٢ — وأما جعلهم الوارثين فهو أن يعطيهم الله ديار قوم آخرين ويحكمهم فيهم ، فهو إرث السلطة فى الأرض بعد من كان قبلهم من أهل السلطان ، فإن الله أورثهم أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والآراميين ، وأحلهم محلهم على ما كانوا عليه من العظمة حتى كانوا يعرفون بالجبابرة قال تعالى « قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين .

٣ — والتمكين لهم فى الأرض تثبيت سلطانهم فيما ملكوه منها ، وتقويتهم بين أمم الأرض .

٤ — زوال ملكهم بسبب رجل من بنى إسرائيل حسبما أنذره بذلك الكهان « ما كانوا يحذرون » .

ومن إرادتهم ذلك إرادتهم مقدماته وأسبابه وفرعون الذى أرى ذلك هو ملك مصر منفتاح الثالث وهو الذى حكم مصر بعد رمسيس الثانى الذى كانت ولادة موسى فى زمانه وهو الذى كان يحذر ظهور رجل من بنى إسرائيل يكون له شأن .

ولفظ « هامان » لقب وزير الملك فى مصر فى ذلك العصر فليس باسم علم ولكنه لقب مثل فرعون وكسرى ونجاشى .

وجاء فى كتب اليهود الملحقة بالتوراة أن لفظ هامان كان علما ، فزعموا أنه لم يكن لفرعون وزير إسمه هامان واتخذوا هذا الظن مطعنا فى هذه الآية وهذا اشتباه منهم فإن الأعلام لا تنحصر وكذلك ألقاب الولايات قد تشترك بين أمم وخاصة الأمم المتجاورة ، فيجوز أن يكون هامان علما من الأمان فإن الأعلام تتكرر فى الأمم والعصور .

ويجوز أن يكون لقبا فى مصر فنقل اليهود هذا اللقب إلى بلاد الفرس فى مدة أسرهم .

معنى لفظ موسى ونشأته ودقة الإعجاز القرآنى :

لفظ موشى بالشين المعجمة وهى لغة قدماء المصريين ، فهى ما يلتقط به الجمرات المحترقة بعد حرقها بالنار ، فقد التقط موسى من قاب النيل ، وهو موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى .

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين »
سورة القصص آية ( ٧ )

إن الله لما أراد إنقاذ بنى إسرائيل من الذل خلق الله المنقذ لهم وهو الجنين الذى فى بطن أم موسى ، ووضعته أمه ، وخافت عليه اعتداء أنصار فرعون على وليدها وتحيرت فى أمرها فأوحى الله إليها بأن ألهمها ما يحقق عندها أنه خاطر من الواردات الإلهية ، فإن الإلهام الصادق يعرض للصالحين فيوقع فى نفوسهم يقينا ينبعثون به إلى عمل ما ألهموا إليه .

والإرضاع الذى أمرت به يتضمن أن تخفيه مدة ترضعه فيها فإذا خفت عليه أن يعرف خبره فألقيه فى اليم وإنما أمرها الله بإرضاعه

لتقوى بنيته بلبان أمه فإنه أسعد بالطفل فى أول عمره من لبان غيرها، وليكون له من الرضاعة الأخيرة قبل إلقائه فى اليم قوت يشد بنيته فيما بين قذفه فى اليم وبين التقاط آل فرعون إياه وإيصاله إلى بيت فرعون وابتغاء المراضع ودلالة أخته إياهم على أمه إلى أن أحضرت لإرضاعه فأرجع إليها بعد أن فارقها بعض يوم .

والظاهر أن هذا الوحى إليها كان عند ولادته وأنها أمرت بأن تلقيه فى اليم عند ما ترى دلائل المخافة من جواسيس فرعون وذلك ليكون إلقاؤه فى اليم عند الضرورة دفعا للضر المحقق بالضر المشكوك فيه ثم ألقى فى يقينها بأنه لا بأس عليه وبشرها بما سيكون له من مقام كريم فى الدنيا والآخرة بأنه من المرسلين .

واليم : البحر وهو هنا نهر النيل الذى كان يشق مدينة فرعون حيث منازل بنى إسرائيل ،

وقد كانت هذه الآية مثالا من أمثلة دقائق الإعجاز القرآنى إذ ذكر عياض فى الشفاء والقرطبى فى التفسير عن الأصمعى أنه سمع جارية أعرابية تنشد :

استغفر الله لأمرى كله قتلت إنسانا بغـير حله
مثل غزال ناعما فى دله انتصف الليل ولم أصله

وهى تريد التورية بالقرآن فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك أى ما أبلغك .

فقالت له أو بعد هذا فصاحة مع قوله تعالى « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا

رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » فجمع فى آية واحدة خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين » .

فالخبران هما « وأوحينا إلى أم موسى » وقوله « فإذا خفت عليه » لأنه يشعر بأنها ستخاف عليه .

والأمران هما : « أرضعيه » و « ألقيه » .

والنهيان : « ولا تخافى » « ولا تحزنى » .

والبشارتان « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

والخوف : توقع أمر مكروه ، والحزن : حالة نفسية تنشأ من حادث مكروه للنفس كفوات أمر محبوب أو فقد حبيب ، أو بعده ، أو نحو ذلك .

والمعنى : لا تخافى عليه الهلاك من الإلقاء فى اليم ولا تحزنى على فراقه .

والنهى عن الخوف وعن الحزن نهى عن سببيها وهما توقع المكروه والتفكر فى وحشة الفراق .

وقوله « إنا رادوه إليك » تعليل للنهيين لأن ضمان رده إليها يقتضى أنه لا يهلك وأنها لا تشتاق إليه بطول المغيب .

وأما قوله « وجاعلوه من المرسلين » فإدخال للمسرة عليها ،

صدق وعد الله ومقدمات نجاته :

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » سورة القصص آية ٨

« فالتقطه آل فرعون » أى فأخذه أهل فرعون أخذ اللقطة التى يعنى بها وتصان عن الضياع صبيحة الليل الذى ألقى فيه التابوت .

وأسند الالتقاط إلى آل فرعون لأن استخراج تابوت موسى من النهر كان من إحدى النساء الحافات بابنة فرعون حين كانت مع أترابها وداياتها على ساحل النيل .

ولم يكن داعيهم إلى التقاطه أن يكون لهم عدواً وحزناً ولكنهم التقطوه رأفة به وحباله لما ألقى فى نفوسهم من شفقة عليه ولكن لما كانت عاقبة التقاطهم إياه أن كان لهم عدواً فى الله وموجب حزن لهم شبهت العاقبة بالعلة فى كونها نتيجة للفعل كشأن العلة غالباً فاستعير لترتب العاقبة المشبهة الحرف الذى يدل على ترتب العلة تبعاً لاستعارة معنى الحرف إلى معنى آخر استعارة تبعية أى استعير الحرف تبعاً لاستعارة معناه لأن الحروف بمعزل عن الاستعارة لأن الحرف لا يقع موصوفا فالاستعارة تكون فى معناه ثم تسرى من المعنى إلى الحرف فلذلك سميت استعارة تبعية عند الجمهور .

« ليكون لهم عدوا وحزنا » أى لتكون عاقبة أمره كذلك إذ أراد الله هذا كما تقول لآخر تؤنبه على فعل كان قد فعله وهو يظن نفسه محسنا فيه وأدى الأمر إلى مساءة وضر قد لحقه : فعلت هذا لضر نفسك، وهو حين الفعل راجيا نفعه غير أن العاقبة جاءت بخلاف ما كان يرجو ، وهذا جار على سنن العرب فى كلامهم فيذكرون الحال بالمآل قال شاعرهم :

وللمنايا تربى كل مرضعة
ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال آخر :

فللموت تغذو الوالدات سخالها
كما لخراب الدهر تبنى المساكن

فعاقبة البناء الخراب وإن كان فى الحال مفروحا به وعاقبة تغذية السخال الذبح وإن كانت الآن تغذى لتسمن .

وكانت عداوة موسى إياهم مخالفته لهم فى دينهم وحملهم على الحق ، وحزنهم بزوال ملكهم على يديه بالغرق بعد أن يظهر فيهم الآيات ، فكان موسى عدوا وحزنا لدولتهم وأمتهم ، فقد كانت بعثته فى مدة ابن فرعون هذا ، فهو سبب للحزن وليس هو حزنا .

وقدر الله نجاة موسى ليكون لهم عدوا وحزنا لأنهم كانوا مجرمين فجعل الله ذلك عقابا لهم على ظلمهم بنى اسرائيل وعلى عبادة الأصنام .

« إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » إن هؤلاء كان من دأبهم الخطأ وعدم التدبر فى العواقب ومن ثم قتلوا لأجله ألوفا ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون .

## امرأة فرعون كانت سببا فى نجاة موسى :

« وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لايشعرون »(٩) .

يدل الكلام على أن الذين انتشلوه جعلوه بين أيدى فرعون وامرأته فرقت له امرأة فرعون ، وصرفته عن قتله بعد أن هم به لأنه علم أن الطفل

ليس من أبناء القبط بلون جلده وملامح وجهه ، وعلم أنه لم يكن حمله النيل من مكان بعيد لظهوره أنه لم يطل مكث تابوته فى الماء ولا اضطرابه بكثرة التنقل « فعلم أن وضعه فى التابوت لقصد إنجائه من الذبح ، وكان ذلك وقت انتشاله من الماء وإخراجه من التابوت .

وكانت امرأة فرعون امرأة ملهمة للخير وقدر الله نجاة موسى بسببها وقد قال الله تعالى فى شأنها « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » وهى لم تر عداوة موسى لآل فرعون ولا حزنت منه لأنها انقرضت قبل بعثة موسى .

وامرأة فرعون سميت آسية بنت مزاحم كما فى الحديث المروى عن النبى ﷺ « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون » .

ويفيد قولها لك أن فرعون حين رآه استحسنه ثم خالجه الخوف من عاقبة أمره فلذلك أنذرته امرأته بقولها « قرة عين لى ولك لا تقتلوه » .

وقرة العين كناية عن السرور فهى كناية ناشئة عن ضدها وهو سخونة العين التى هى من أثر البكاء اللازم للأسف والحزن ، فلما كنى عن الحزن بسخنة العين أتبعوا ذلك بأن كنوا عن السرور بقرة العين فحكى القرآن ما فى لغة امرأة فرعون من دلالة على معنى المسرة الحاصلة للنفس ببليغ ما كنى به العرب عن ذلك وهو قرة عين » .

ومن لطائفه فى الآية أن المسرة المعنية هى مسرة حاصلة من مرأى محاسن الطفل كما قال تعالى « وألقيت عليك محبة منى » .

ويجوز أن يكون قوله « قرة عين » قسما كما يقال : أيمن الله فإن

العرب يقسمون بذلك ، أى أقسم بما تقر به عينى . وفى الحديث الصحيح أن أبا بكر استضاف نفرا وتأخر عن وقت عشائهم ثم حضر ، وفيه قصة إلى أن قال الراوى : فجعلوا لا يأكلون لقمة إلا ربت من أسفلها أكثر منها فقال أبو بكر لامرأته : ياأخت بنى فراس ماهذا ؟ فقالت وقرة عين إنها الآن أكثر من قبل .

فتكون امرأة فرعون أقسمت على فرعون بما فيه قرة عينها وقرة عينه أن لا يقتل موسى وابتدأت بنفسها فى قرة عين لى ، قبل ذكر فرعون إدلالا عليه لمكانتها عنده أرادت أن تبتدره بذلك حتى لا يصدر عنه الأمر بقتل الطفل .

وقالت : لاتقتلوه بضمير الجمع تريد أن تجعل خطاب فرعون داخلا فيه أهل دولته هامان والكهنة الذين ألقوا فى نفس فرعون أن فتى من بنى إسرائيل يفسد عليه مملكته ، وأسندت معظم القتل لأهـــل الدولة وجعلت لفرعون منه حظ الواحد من الجماعة فكأنها تعرض بأن ذلك ينبغى أن لا يكون عن رأيه فتهون عليه عدوله فى هذا الطفل عما تقرر من قتل الأطفال .

ثم ذكرت العلة « عسى أن ينفعنا » بهذا الترتيب البليغ بأن جعل الوازع الطبيعى عن القتل وهو وازع المحبة هو المقدمة لأنه أشد تعلقا بالنفس فهو يشبه المعلوم البديهى ، وجعل الوازع العقلى بعد النهى علة لاحتياجه إلى الفكر فتكون مهلة التفكير بعد سماع النهى الممهد بالوازع الطبيعى فلا يخش جماح السامع عن النهى ورفضه إياه .

ويتضمن قولها « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » إزالة ماخامر نفس فرعون من خشية فساد ملكه على يد فتى إسرائيلى بأن هذا الطفل لا يكون هو المخوف منه لأنه لما انضم فى أهلهم وسيكون ربيهم فإنه

يرجى منه نفعهم وأن يكون لهم كالولد فأقنعت فرعون بقياس على الأحوال المجربة فى علاقة التربية والمعاشرة والتبنى والإحسان ، وإن الخير لايأتى بالشر ، ولذلك جاء بقوله « وهم لايشعرون » أى فرعون وقومه لايعلمون خفى إرادة الله من الانتقام من أمة القبط بسبب موسى، ولعل الله حقق لامرأة فرعون رجاءها فكان موسى قرة عين لها ولزوجها فلما هلكا وجاء فرعون آخر بعدهما كان ما قدره الله من نصر بنى إسرائيل .

واختار « يشعرون » هنا لأنه من العلم الخفى أى لايعلمون هنا الأمر الخفى .

إلقاء المحبة على موسى :

« وألقيت عليك محبة منى » أى حين أوحينا إلى أمك ما كان به سلامتك من الموت ، وحين ألقيت عليك محبة لتحصل الرقة لواجده فى اليم فيحرص على حياته ونمائه ويتخذه ولدا كما سبق فى الآية الأخرى وقد غلب على ظن فرعون أنه من غلمان بنى اسرائيل وليس من أبناء القبط .

وقد خلق الله المحبة فى قلب المحب بدون سبب عادى حتى كأنه وضع باليد لامقتضى له فى العادة .

ووصف المحبة بأنها من الله للدلالة على أنها محبة خارقة للعادة لعدم ابتداء أسباب المحبة العرفية من الإلف والانتفاع ، فكان قرة عين لها قبل أن ينفعها وقبل اتخاذه ولدا .

ثبات أم موسى بعد إلقائه فى اليم :

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » سورة القصص آية ١٠ .

هذه الآية تشير إلى ناحيتين : ناحية تؤذن بثبات أم موسى ورباطة جأشها ، وناحية تؤذن بتطرق الضعف والشك إلى نفسها .

فأما ما يرجع إلى الناحية الأولى فهو أنه فارغ من الخوف والحزن فأصبحت واثقة بحسن عاقبته تبعا لما ألهمها من أن لاتخاف ولا تحزن فيرجع إلى الثناء عليها .

فالمعنى : أنها لما ألقته فى اليم ألهمها الله زال عنها ما كانت تخافه من الظهور عليه عندها وقتله لأنها تمكنت من إلقائه فى اليم ولم يشعر بها أحد قد علمت أنه نجا ، وهذا الحمل يساعده أيضا ماشاع من قولهم فلان خلى البال : إذا كان لاهم بقلبه وهو تفسير أبى عبيدة والأخفش .

وعن ابن عباس أنه قال : فارغا من كل شىء إلا ذكر موسى وفى هذا شىء من رباطة جأشها إذ فرغ لها من كل خاطر فى شأن موسى ، لعله انتزعه من قوله « إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها » وهذا يقتضى الجمع بين الثناء عليها بحسن ثقتها بالله ، والإشارة إلى ضعف الأمومة بالتشوق إلى ولدها وإن كانت عالمة بأنه يتقلب فى أحوال صالحة به وبها .

وفى الكشاف : لما سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع .

وقال ابن زيد والحسن : أصبح فارغا من تذكر الوعد الذى وعدها

الله به إذخامرها خاطر شيطانى فقالت فى نفسها إنى خفت عليه من القتل فألقيته بيدى فى يد العدو الذى أمر بقتله وقوله « إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها » وهى بيان بأنها كانت تقارب أن تظهر أمر ابنها من شدة الاضطراب :

فالمعنى أصبح فؤادها فارغا وكادت قبل ذلك أن تبدى خبر موسى فى مدة إرضاعه من شدة الهلع والإشفاق عليه أن يقتل .

وعلى تفسير ابن عباس تكون « إن كادت » بمنزلة الدليل على الاستئناف المحذوف فالتقدير : فارغا إلا من ذكر موسى فكادت تظهر ذكر موسى وتنطق باسمه من كثرة تردد ذكره فى نفسها .

وعن مجاهد : لما رأت الأمواج حملت التابوت كادت أن تصيح .

والربط على القلب : توثيقه عن أن يضعف كما يشد العضو الوهن أى ربطنا على قلبها بخلق الصبر فيه والمراد بالمؤمنين الصادقين بوعد الله أى لولا أن ذكرناها ماوعدناها فاطمأن فؤادها .

مهارة أخته فى كيفية مراقبته :

« وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون » سورة القصص (١١) .

أى قالت أم موسى لأخته ذلك بعد أن اطمأن قلبها لما ألهمته من إلقائه فى اليم ، أنظرى أين يلقيه اليم ومتى يستخرج منه وقد علمت أن اليم لايلقيه بعيدا عنها لأن ذلك مقتضى وعد الله برده إليها .

وأخت موسى اسمها مريم ابنة عمران ، وتوفيت سنة ثلاث من

خروج بنى إسرائيل من مصر فى برية سين سنة ١٤١٧ قبل ميلاد المسيح كما ذكر فى الإصحاح الخامس عشر من سفر الخروج .

وكانت كبيرة تعى ما يقال لها : تتبعى أثره ، وتسمعى خبره فأبصرته عن بعدوهم أى آل فرعون حين التقطوه لايشعرون بأن أخته تراقب أحواله وذلك من حذق أخته فى كيفية مراقبته .

الحكمة فى مشى أخته :

« وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » (١٢) .

أى قدرنا فى نفس الطفل الامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يتقبل ثديها ، لأن فرعون وامرأته حريصان على حياة الطفل ، ومن مقدمات ذلك أن جعل الله إرضاعه من أمه مدة تعود فيها بثديها

ومعنى « من قبل » من قبل التقاطه وهو إيذان بأن ذلك التحريم مما تعلق به علم الله وإرادته فى الأزل .

فأظهرت أخته نفسها كأنها مرت بهم من غير قصد ، وإنما قالت ذلك بعد أن فشا فى الناس طلب المراضع له وتبديل مرضعة عقب أخرى حتى عرض على عدد كثير فى مـــدة قصيرة ، وذلك بسرعة مقدرة آل فرعون وكثرة تفتيشهم على المراضع حتى وجدوا عددا كثيرا فى زمن يسير ، وأيضا لعرض المراضع أنفسهن على آل فرعون لما شاع أنهم يتطلبون مرضعا .

وعرضت سعيها فى ذلك بطريق الاستفهام المستعمل فى العرض تلطفا مع آل فرعون وإبعادا للظنة عن نفسها .

ومعنى « يكفلونه » يتعهدونه بحفظه وإرضاعه « فيدل هذا على أن عادتهم فى الإرضاع أن يسلم الطفل الرضيع إلى المرأة التى ترضعه يكون عندها كما كانت عادة العرب لأن النساء الحرائر لم يكن يرضين بترك بيوتهن والانتقال إلى بيوت آل الأطفال الرضعاء .

كما جاء فى خبر إرضاع محمد ﷺ عند حليمة بنت وهب فى حى بنى سعد بن بكر .

قال صاحب الكشاف : فدفعه فرعون إليها وأجرى لها وذهبت به إلى بيتها .

« وهم له ناصحون » والتعبير بالجملة الإسمية لقصد تأكيد أن النصح من سجاياهم ومما ثبت لهم فلذلك لم يقل : وينصحون له كما قيل « يكفلونه لكم » لأن الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية .

وجاء بلفظ « له » على معنى أن النصح من صفاتهم فهو حاصل له كما يحصل لأمثاله حسب سجيتهم والنصح : العمل الخالص الخلى من التقصير والفساد .

روى عن ابن عباس أنها لما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها : ما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت : هم يفعلون ذلك رغبة منهم فى سرور الملك ورجاء عطائه ، وبذا خلصت من أذاهم وذهبوا معها إلى منزلهم ودخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها العطاء الجزيل ثم سألتها أن تقيم عندها وترضعه فأبت ذلك عليها وقالت إن لى بعلا وأولادا ، ولا أستطيع المقام عندك ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت ، فأجابتها إلى ما طلبت ، وأجرت عليها النفقة والصلات والكساء وجزيل العطايا ورجعت بولدها إلى بيتها راضية

مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا وهى موفورة العز والجاه والرزق الواسع ، وقد جاء فى الأثر مثل الذى يعمل الخير ويحتسب كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها .

العبر المستفادة من هذه القصة

« فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون » (١٣) سورة القصص

أى فرددناه إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون لتقر عينها بابنها إذ رجع إليها سليما ، ولا تحزن على فراقه إياها ولتعلم أن وعد الله الذى وعدها حين قال لها « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » حق لامرية فيه ولاخلاف وقد شاهدت بعضه وقاست الباقى عليه

والاستدراك بلفظ « ولكن » ناشىء عن نصب الدليل لها على أن وعد الله حق فعلمت ذلك وحدها وأكثر القوم لايعلمون ذلك لأنهم بين مشركين و بين مؤمنين تقادم العهد على إيمانهم وخلت أقوامهم من علماء يلقنونهم معانى الدين .

وموضع العبرة من هذه القصة أنها تتضمن أمورا ذات شأن فيها ذكرى للمؤمنين وموعظة للمشركين

١ — أول ذلك وأعظمه : إظها أن ماعلمه الله وقدره هو كائن لامحالة كما دل عليه قوله « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض إلى قوله « يحذرون » ، وأن الحذر لايغنى من القدر .

٢ — إظهار أن العلو الحق لله تعالى وللمؤمنين وأن علو فرعون لم

يغن عنه شيئا فى دفع عواقب الجبروت والفساد ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة .

٣ — إن تمهيد القصة بعلو فرعون وفساد أعماله مشير إلى أن ذلك هو سبب الانتقام منه والأخذ بناصر المستضعفين ليحذر الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم وليرجو الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم .

٤ — الإشارة إلى حكمة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » فى جانب بنى اسرائيل « وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » فى جانب فرعون إذ كانوا فرحين باستخدام بنى إسرائيل وتذبير قطع نسلهم .

٥ — إن إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أملوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو كما قال « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » مع قوله «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » .

٦ — إنه لا يجوز بحكم أن تستأصل أمة كاملة لتوقع مفسد فيها لعدم التوازن بين المفسدتين ، ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة فلا يكون المتوقع فساده إلا فى الجانب المغفول عنه من الأفراد فتحصل مفسدتان هما أخذ البرىء وانفلات المجرم .

٧ — تعليم أن الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوى ولما قدر لإهلاكهم هذه الصورة المرئية ولأنجى موسى وبنى إسرائيل إنجاء أسرع ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى فى اليم إلى أن رده إلى أمه فتكون فى ذلك عبرة للمشركين الذين « قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » وليتوسموا من بوارق ظهور النبى محمد ﷺ وانتقال أحوال دعوته فى مدارج القوة أن ما وعدهم به واقع .

٨ — العبرة بأن وجود الصالحين من بين المفسدين يخفف من لأواء فساد المسفدين فإن وجود امرأة فرعون كان سببا فى صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقق أنه اسرائيلى فقالت امرأته « لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » .

٩ — فى قوله « ولتعلم أن وعد الله حق » من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين ، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفر لهم منه .

١٠ — فى قوله « ولكن أكثرهم لا يعلمون » الإشارة إلى أن المرء يؤتى من جهله النظر فى أدلة العقل .

ولما فى هذه القصة من العبر اكتفى مصعب بن الزبير بطالعها عن الخطبة التى حقه أن يخطب بها فى الناس حين حلوله بالعراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير مكتفيا بالإشارة مع التلاوة فقال « طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض » وأشار إلى جهة الشام يريد عبد الملك بن مروان .

« وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » وأشار بيده نحو الحجاز ، يعنى أخاه عبد الله بن الزبير وأنصاره « ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما » .

وأشار إلى العراق يعنى الحجاج « منهم ما كانوا يحذرون » 

## الإنعام على موسى بالعلم والحكمة

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين »
١٤ القصص

بعد أن ذكر سبحانه ما أفاض على موسى من نعمه فى الصغر من إنجائه من الهلاك بعد وضعه فى التابوت وإلقائه فى النيل وإنجائه من الذبح الذى عم أبناء بنى إسرائيل ذكر ما أنعم به عليه فى كبره من إيتاء العلم والحكمة ثم إرساله رسولا إلى بنى إسرائيل والمصريين .

وإنما أوتى الحكم أعنى النبوة بعد خروجه من أرض مدين كما سيأتى

وذكر نظير هذه الآية فى سورة يوسف ، إلا قوله « واستوى » لأن الأشد : كمال القوة والاستواء كمال البنية ، ولهذا أريد لموسى الوصف بالاستواء ولم يوصف يوسف إلا ببلوغ الأشد خاصة لأن موسى كان رجلا طوالا كما فى الحديث « كأنه من رجال شنوءة » فكان كامل الأعضاء ولذلك كان وكزه القبطى قاضيا على الموكوز .

والحكم : الحكمة ، والعلم : المعرفة بالله

## السبب فى هجرته إلى مدين بقتله القبطى

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عـــدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » ١٥

طويت أخبار كثيرة تنبىء عنها القصة وذلك أن موسى شب فى قصر

فرعون فكان معدودا من أهل بيت فرعون ، وقيل : كان يدعى موسى ابن فرعون .

ودخل المدينة وهى منفيس قاعدة مصر الشمالية فى الوقت الذى يغفل فيه أهل المدينة عما يجرى فيها وهو وقت القيلولة ، وكان موسى مجتازا بالمدينة وحده .

والمقصود من ذكر هذا الوقت الإشارة إلى أن قتله القبطى لم يشعر به أحد تمهيدا لقوله بعد « قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس » ، ومقدمة لذكر خروجه من أرض مصر .

والشيعة : الجماعة المنتمية إلى أحد ، والعدو : الجماعة التى يعاديها ويبغضها موسى ، فالذى من شيعته رجل من بنى اسرائيل ، والذى من عدوه رجل من القبط قوم فرعون

وكان موسى يعلم أنه من بنى إسرائيل بإخبار قصة التقاطه من اليم وأن تكون أمه قد أفضت إليه خبرها وخبره فنشأ موسى على عداوة القبط وعلى إضمار المحبة لبنى اسرائيل .

وأما وكزه القبطى فلم يكن إلا انتصارا للحق ولذلك لما تكررت الخصومة بين ذلك الإسرائيلى وبين قبطى آخر وأراد موسى أن يبطش بالقبطى لم يقل له القبطى إن تريد إلا أن تنصر قومك وإنما قال « إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض »

وكان القبطى من عملة مخبز فرعون فأراد أن يحمل حطبا إلى الفرن فدعا إسرائيليا ليحمله فأبى أن يجبره على حمله وأن يضعـــه على ظهره فاختصما وتضاربا ضربا شديدا المعبر عنه بالتقاتل

والاستغاثة : طلب الغوث وهو التخليص من شدة أو العون على دفع

مشقة ، وإنما يكون هذا الطلب بالنداء فذكر الاستغاثة يؤذن بأن الإسرائيلى كان مغلوبا وأن القبطى اشتد عليه وكان ظالما إذ لا يجبر أحد على عمل يعمله .

والوكز : الضرب باليد بجمع أصابعها .

والمعنى فوكزه موسى فمات القبطى ، وكان هذا قتل خطأ صادف الوكز مقاتل القبطى ولم يرد موسى قتله ، وفوجىء موسى بموت القبطى فلم يخطر بباله حينئذ إلا النظر فى العاقبة الدينية فقال فى نفسه هذا من عمل الشيطان والمعنى أن الشيطان أوقد غضبه حتى بالغ فى شدة الوكز .

وإنما قال موسى ذلك ، لأن قتل النفس مستقبح فى الشرائع البشرية فإن حفظ النفس المعصومة من أصول الأديان كلها ، ولولا الخاطر الشيطانى لاقتصر على زجر القبطى أو كفه فى الذى من شيعته فلما كان الشيطان عدوا للإنسان وكانت له مسالك إلى النفوس استدل موسى بفعله المؤدى إلى قتل نفس أنه فعل ناشىء عن وسوسة الشيطان ، ولولاها لكان عمله جاريا على الأحوال المأذونة .

وفى هذا دليل على أن الأصل فى النفس الإنسانية هو الخير وأنه الفطرة وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطرى وهو تخلل نزغ الشيطان فى النفس

## ندم موسى على قتله وإجابة دعائه

« قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم » (١٦) « قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين »(١٧)

ندم موسى على قتله نفسا لم يؤمر بقتلها ، وسمى فعله ظلما لنفسه لأنه

كان من أثر فرط الغضب لأجل رجل من شيعته وكان يستطيع أن يملك من غضبه فكان تعجيله بوكز القبطى وكزة قاتلة ظلما جره لنفسه وسماه فى سورة الشعراء ضلالا « قال فعلتها إذن وأنا من الضالين »

وأراد بظلمه نفسه أنه تسبب لنفسه فى مضرة إضمار القبط قتله ، وأنه تجاوز الحد فى عقاب القبطى على مضاربته الإسرائيلى ، ولعله لم يستقص الظالم منهما وذلك انتصار جاهلى .

وقد اهتدى موسى إلى هذا كله بالإلهام إذ لم تكن يومئذ شريعة إلهية فى القبط .

ولا التفات فى هذا إلى جواز صدور الذنب من النبى لأنه لم يكن يومئذ نبيا ، ولا مسألة صدور الذنب من النبى قبل النبوة ، لأن تلك مفروضة فيما تقرر حكمه من الذنوب بحسب شرع ذلك النبى أو شرع نبى هو متبعه مثل عيسى عليه السلام قبل نبوته لوجود شريعة التوراة وهو من أتباعها .

وإنما عده ذنباً من أجل أنه لاينبغى لنبى أن يقتل حتى يؤمر بالقتل .

روى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : ياأهل العراق ماأسألكم وأركبكم للكبيرة . سمعت أن عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الفتنة تجىء من هاهنا — وأومأ بيده نحو المشرق — من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : « وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا »

واستجاب الله استغفاره فعجل له بالمغفرة وأجاب دعاءه فعفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه ، إنه هو الستار الذنوب من أناب إليه المتفضل عليه بالعفو عنها .

وقد شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه فقال : « قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين » .

أراد بالمجرمين من يتوسم منهم الإجرام وأراد بهم الذين يستذلون الناس ويظلمونهم لأن القبطى أذل الإسرائيلى بإجباره على تحميله الحطب دون رضاه .

ولعل هذا الكلام ساقه مساق الإعتذار عن قتله القبطى وثوقاً بأنه قتله خطأ .

وقد دل هذا الكلام على أن موسى أراد أن يجعل عدم مظاهرته للمجرمين جزاء على نعمة الحكمة والعلم بأن جعل شكر تلك النعمة الانتصار للحق وتغيير الباطل لأنه إذا لم يغير الباطل والمنكر وأقرهما فقد صانع فاعلهما ، والمصانعة مظاهرة .

ومما يؤيد هذا أن موسى لما أصبح من الغد فوجد الرجل الذى استصرخه فى أمسه يستصرخه على قبطى آخر أراد أن يبطش بالقبطى وفاء بوعده ربه إذ قال : « فلن أكون ظهيرا للمجرمين » لأن القبطى مشرك بالله والإسرائيلى موحد .

وقد جعل جمهور من السلف هذه الآية حجة على منع إعانة أهل الجور فى شىء من أمورهم : ولعل وجه الإحتجاج بها أن الله حكاها عن موسى فى معرض التنويه به فاقتضى ذلك أنه من القول الحق .

حال موسى بعد قتل القبطى فى المدينة :

« فأصبح فى المدينـــة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين »(١٨) فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين » (١٩) .

أى أصبح خائفاً من أن يطالب بدم القبطى الذى قتله وهو يراقب مايقال فى شأنه ليكون متحفزا للاختفاء أو الخروج من المدينة لأن خبر قتل القبطى لم يفش أمره لأنه كان فى وقت تخلو فيه أزقة المدينة فلذلك كان موسى يترقب أن يظهر أمر القبطى المقتول وإذا به يفاجأ أن الذى استنصره بأمسه يستصرخه اليوم وبالغ فى النداء طالباً الغوث ، وتذمر موسى من الإسرائيلى إذ كان استصراخه السابق سبباً فى قتل نفس ، وهذا لا يقتضى عدم إجابة استصراخه وإنما هو بمنزلة التشاؤم واللوم عليه فى كثرة خصوماته فقال موسى له « إنك لغوى مبين » أى شديد الغواية وهى الضلال وسوء النظر أى إنك تشاد من لا تطيقه ثم تروم الغوث منى يوماً بعد يوم ، وليس المراد أنه ظالم أومفسد لأنه لو كان كذلك لما أراد أن يبطش بعدوه .

والبطش : الضرب ، وظاهر قوله « عدولهما » أنه قبطى ، وربما جعل عدواً لهما لأن عداوته للإسرائيلى معروفة فاشية بين القبط وأما عداوته لموسى فلأنه أراد أن يظلم رجلا والظلم عدو لنفس موسى لأنه نشأ على زكاء نفسى هيأه الله للرسالة .

والمعنى : إنك تحاول أن تكون متصرفاً بالانتقام والشدة ولا تحاول أن تكون من المصلحين بين الخصمين بأن تسعى فى التراضى بينهما ،

ويظهر أن كلام القبطى زجر ، لموسى عن البطش به وصار بينهما جوارا أعقبه مجىء رجل من أقصى المدينة .

مؤمن آل فرعون ينصحه بالخروج من المدينة ومحل العبرة من القصة :

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين (٢٠) فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين » (٢١) .

ظاهر الكلام أن مؤمنا من آل فرعون يخفى إيمانه جاء على حين محاورة القبطى مع موسى فلذلك انطوى أمر محاورتهما إذ حدث ما هو أهم وأجدى :

وسماه الله رجلا ومدحه بالرجولة فقد ضحى وأسرع لينقذ موسى قبل وصول القتلة إليه حيث قال : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » أما صاحب ياسين فقد قال الله فيه « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين » سورة ياسين آية ٢٠

والظاهر أن أقصى المدينة هو ناحية قصور فرعون وقومه فإن عادة الملوك السكنى فى أطراف المدن توقياً من الثورات والغارات لتكون مساكنهم أيسر لخروجهم عند الخوف .

وقد قيل : الأطراف مساكن الأشراف .

وبهذا يظهر وجه ذكر المكان الذى جاء منه الرجل وأن الرجل كان يعرف موسى ، وقال له : إن أولى الأمر يأتمرون ويتشاورون

فى قتلك، وهذا يقتضى أن القضية رفعت إلى فرعون ، وفى سفر الخروج فى الإصحاح الثانى : « فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى » ولما علم هذا الرجل بذلك أسرع بالخبر لموسى لأنه كان معجباً بموسى واستقامته وقيل كان هذا الرجل من بنى إسرائيل ، وقيل : كان من القبط ولكنه كان مؤمناً يكتم إيمانه لعل الله ألهمه معرفة فساد الشرك بسلامة فطرته وهيأة لإنقاذ موسى من يد فرعون بخروجه من المدينة فخرج منها خائفاً يترقب أى يلتفت يمنة ويسرة داعياً الله أن ينجيه من القوم الظالمين وهم قوم فرعون ، ووصفهم بالظلم لأنهم مشركون ولأنهم راموا قتله قصاصاً عن قتل خطأ وذلك ظلم لأن الخطأ فى القتل لا يقتضى الجزاء بالقتل فى نظر العقل والشرع .

ومحل العبرة من قصة موسى مع القبطى وخروجه من المدينة هو :

١ — أن الله يصطفى من يشاء من عباده ، وأنه أعلم حيث يجعل رسالته .

٢ — وأنه إذا تعلقت إرادته بشىء هيأ له أسبابه بقدرته فأبرزه على أتقن تدبير .

٣ — أون الناظر البصير فى آثار ذلك التدبير يقتبس منها دلالة على صدق الرسول فى دعوته ، وإن أوضح تلك المظاهر هو مظهر استقامة السيرة ومحبة الحق .

٤ — وأن دليل عناية الله بمن اصطفاه لذلك هو نصره على أعدائه ونجاته مما له من المكائد .

٥ — وفى قوله : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » إيمــاء إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخرج من مكة وأن الله منجيه من ظالميه .

هجرة موسى إلى أرض مدين :

« ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » (٢٢) .

هذه هجرة نبوية تشبه هجرة إبراهيم عليه السلام إذ قال : «إنى مهاجر إلى ربى» ، وقد ألهم الله موسى أن يقصد بلاد مدين لعله يجد من ينصره ، ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجه ولا من سيجدفى وجهته .

ولما خرج من المدينة هائماً على وجهه فاتفق أن كان مسيره فى طريق يؤدى إلى أرض مدين ، فعن له ثلاث طرائق فسار فى الوسطى وأخذ طالبوه فى الآخرين حينئذ قال : «عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل» . قال ابن عباس : خرج موسى ولا علم له بالطريق إلا حسن ظنه بربه .

وتوجه : ولى وجهه واستقبل بسيره جهة أرض مدين :

ومدين : قوم من ذرية مدين بن إبراهيم ، وأرض مدين واقعة على الشاطىء الغربى من البحر الأحمر وكان موسى قد سلك إليها عند خروجه من منفيس طريقاً غربية جنوبية فسلك برية تمر به على أرض العمالقة وأرض الأدوميين ثم بلاد النبط إلى أرض مدين تلك مسافة ثمانمائة وخمسين ميلا تقريباً ، وإذ قد كان موسى فى سيره ذلك راجلا فتلك المسافة تستدعى من المدة نحوا من خمسة وأربعين يوماً ، وكان يبيت فى البرية لامحالة ، وكان رجلا جلدا ، وقد ألهمه الله سواء السبيل فلم يضل فى سيره ، وقد ألهمه الله هذه الدعوة التى فى طيها توفيقه إلى الدين الحق .

وصول موسى إلى أرض مدين :

« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير (٢٣) فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » (٢٤) .

أى لما وصل موسى موضع الماء ، وماء القوم هو الذى تعرف به ديارهم ، لأن القبائل كانت تقطن عند المياه وكانوا يكنون عن أرض القبيلة بماء بنى فلان وجد جماعة كثيرة العدد يسقون مواشيهم فوجد بنتين سماهم القرآن امرأتين قد وقفتا بعيداً عن الرعاة «تذودان» تطردان وحقيقة الزود طرد الأنعام عن الماء ولذلك سموا القطيع من الإبل الذود والمعنى تمنعان إبلا عن الماء ، وصاحب المروءة ينضم إلى الضعيف ، فلما رأى موسى المرأتين تمنعان أنعامهما من الشرب سألهما : ماخطبكما ؟ وهو سؤال عن قصتهما وشأنهما إذ حضرا الماء ولم يقتحما عليه لسقى غنمهما .

فأجابتا بأنهما كرهتا أن تسقيا فى حين اكتظاظ المكان بالرعاء وأنهما تستمران على عدم السقى كما اقتضاه التعبير بالمضارع إلى أن ينصرف الرعاء أى حتى يذهب رعاء الإبل بأنعامهم فلا يبقى الزحام وصدهما عن المزاحمة عادتهما لأنهما كانتا ذواتى مروءة وتربية زكية .

واعتذرتا بقولهما « وأبونا شيخ كبير » فهو اعتذار عن حضورهما السقى مع الرجال لعدم وجدانهما رجلا يستقى لهما لأن الرجل الوحيد لهما هو أبوهما وهـــو شيخ كبير لا يستطيع ورود الماء لضعفه عن المزاحمة .

واسم المرأتين « ليا » و « صفورة » .

وفى تاريخ ابن العبرى يثرون بن رعويل له سبع بنات خرج للسقى منهما ثنتان، فيكون شعيب هو المسمى عند اليهود يثرون .

وفرع علماؤنا على ماصدر من شعيب مسائل مبنية على أصل : أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ ومنها مباشرة المرأة الأعمال والسعى فى طرق المعيشة ووجوب استحيائها ، وولاية الأب فى النكاح ، وجعل العمل البدنى مهراً ، وجمع النكاح والإجارة فى عقد واحد ومشروعية الإجارة ، وقد استوفى الكلام عليها القرطبى ، ففى هذه الآية دليل لها من الكتاب عند القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا .

وفى إذنه لابنتيه بالسقى دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها وظهورها فى مجامع الناس إذا كانت تستر مايجب ستره فإن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت فى شرعنا ما ينسخه .

وأما تحاشى الناس من نحو ذلك فهو من المروءة والناس مختلفون فيما تقتضيه المروءة والعادات متباينة فيه وأحوال الأمم فيه مختلفة وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف .

وفور وصول موسى بادر فسقى ما جئن لسقيه لايدفعه لذلك إلا همما أى رأفة بهما وغوثا لهما وذلك قوة مروءته أن اقتحم ذلك العمل الشاق على ما هو عليه من الإعياء عند الوصول .

« ثم تولى » يفيد أنه كان جالسا من قبل فى ظل فرجع إليه ويظهر أن تولى مرادف ولى ولكن زيادة المبنى من شأنها أن تقتضى زيادة المعنى فيكون تولى أشد من « ولى » .

وقد أعقب إيواءه إلى الظل بمناجاته ربه إذ قال : « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » لما استراح من مشقة نقل الماء والسقى لماشية المرأتين والاقتحام بها فى عدد الرعاء العديد ، ووجد برد الظل تذكر

بهذه النعمة نعماً سابقة أسداها الله إليه من نجاته من القتل وإيتائه الحكمة والعلم وتخليصه من تبعة قتل القبطى ، وإيصاله إلى أرض معمورة بأمة عظيمة بعد أن قطع فيافى ومفارات ، تذكر جميع ذلك وهو فى نعمة برد الظل والراحة من التعب .

فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء وهى : « ربى إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » .

والفقير : هو المحتاج وقوله : « إنى لما أنزلت إلى من خير » شكر على نعم سلفت ، وهو ثناء على الله بأنه معطى الخير .

والخير : ما فيه نفع وملاءمة لمن يتعلق هو به فمنه خير الدنيا ومنه خير الآخرة .

وقد أراد النوعين كما يشير إلى ذلك التعبير عن إيتائه الخير بفعل « أنزلت » المشعر برفعة المعطى .

فأول ذلك إيتاء الحكمة والعلم .

ومن الخير انجاؤه من القتل ، وتربيته الكاملة فى بذخة الملك وعزته ، وحفظه من أن تتسرب إليه عقائد العائلة التى ربى فيها ، فكان منتفعاً بمنافعها مجنبا رذائلها وأضرارها .

ومن الخير أن جعل نصر قومه على يده ، وأن أنجاه من القتل الثانى ظلما ، وأن هداه إلى منحى من الأرض ويسر له التعرف بأهل الصلاح وأن آواه إلى ظل .

وأحسن خير للغريب وجود مأوى له يطعم فيه ويبيت وزوجة يأنس إليها ويسكن .

فكان استجابة الله له بأن ألهم شعيبا أن يرسل وراءه ليتزله عنده ويزوجه بنته كما أشار إلى ذلك بفاء التعقيب فى قوله : « فجاءته إحداهما » .

إرسال شعيب لاستضافة موسى :

« فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » .

إن الفاء تؤذن بأن الله استجاب له فقيض شعيباً أن يرسل وراء موسى ليضيفه ويزوجه بنته فذلك يضمن له أنسا فى دار غربة ومأوى وعشيرا صالحاً وتؤذن الفاء أيضا بأن شعيبا لم يتريث فى الإرسال وراءه فأرسل إحدى البنتين اللتين سقى لهما وهى صفورة فجاءته وهو لم يزل عن مكانه فى الظل .

وجاء بذكر تمشي ليبنى عليه قوله على استحياء وإلا فإن فعل جاءته مغن عن ذكر تمشي .

وجاءت وهى مستحيية فى مشيها أى تمشي غير متبخترة ولامتثنية ولا مظهرة زينتها والاستحياء مبالغة فى الحياء .

والغرض من دعوته هو المبادرة بالإكرام .

والجزاء : المكافأة على عمل بمثله .

والأجر : التعويض على عمل نافع للمعوض ، وهو أنه أراد ضيافته .

والجزاء إكرام والإجارة تعاقد ويدل لذلك قوله عقبه « قالت إحداهما يا أبت استأجره » فإنه دليل على أن أباها لم يسبق منه عزم على استئجار موسى وكان فعل موسى معروفا محضا لا يطلب عليه جزاء لأنه لا يعرف المرأتين ولا بيتهما .

وكان فعل شعيب كرماً محضا ومحبة لقرى كل غريب وتضييف الغريب من سنة إبراهيم فلا غرو أن يعمل بها رجلان من ذرية إبراهيم عليه السلام .

سؤال الضيف عن حاله ومقدمه وطمأنة شعيب له :

« فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » (٢٥) .

كانت العوائد أن يفاتح الضيف بالسؤال عن حاله ومقدمه فلذلك قص موسى قصة خروجه ومجيئه على شعيب .

وذلك يقتضى أن شعيبا سأله عن سبب قدومه والقصص : الخبر وقص عليه أخبره .

فطمأنه شعيب بأنه يزيل عن نفسه الخوف لأنه أصبح فى مأمن من أن يناله حكم فرعون لأن بلاد مدين تابعة لملك الكنعانيين وهم أهل بأس ونجدة ومعنى نهيه عن الخوف نهيه عن ظن أن تناله يد فرعون .

وقد وصف قوم فرعون بالظالمين تصديقا لما أخبره به موسى من رومهم قتله قصاصا عن قتل خطأ ، وما سبق من خبر عداوتهم على بنى إسرائيل .

عرض إحدى المرأتين الاستئجار وعرض شعيب الزواج :

« قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين (٢٦) قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ( ٢٧ ) قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل » .

حذف مالقيه موسى من شعيب من الجزاء بإضافته وإطعامه واحتفال

منه إلى عرض إحدى المرأتين على أبيها أن يستأجره للعمل فى ماشيته إذ لم يكن لهم ببيتهم رجل يقوم بذلك وقد كبر أبوهما فلما رأت أمانته وورعه رأت أنه خير من يستأجر للعمل عندهم لقوته على العمل وأمانته .

والتاء فى « أبت » عوض عن ياء المتكلم فى النداء خاصة .

وصار تقدير معنى الكلام استأجره فهو قوى أمين .

وإن خير من استأجر مستأجر القوى الأمين .

ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة لأنه متى اجتمعت هاتان الصفتان : الأمانة والكفاية .

فى القائم بأداء أمر من الأمور تكلل عمله بالنجاح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب وصاحب يوسف فى قوله « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، وأبو بكر فى عمر .

وعن عمر بن الخطاب أنه قال : « أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى » ، يريد أسأله أن يؤيدنى بقوى أمين استعين به .

ولما أعلمت البنت الشيخ بذلك .

« قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » ، أى قال أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى :

إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين وهما اللتان سقى لهما موسى إن كانتا حاضرتين معاً دون غيرهما من بنات شعيب لتعلق القضية بشأنهما أو تكون الإشارة إليهما لحضورهما فى ذهن موسى باعتبار قرب عهده بالسقى لهما إن كانت الأخرى غائبة حينئذ .

وفيه جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها رغبة فى صلاحه وجعل لموسى إختيار إحداهما لأنه قد عرفها وكانت التى أختارها موسى صفورة وهى الصغرى كما جاء فى رواية أبى ذر عن النبى ﷺ ، وإنما اختارها دون أختها لأنها التى عرف أخلاقها باستحيائها وكلامها فكان ذلك ترجيحا لها عنده .

وقد عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى ﷺ ، قال ابن عمر « لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر » .

الحديث أخرجه البخارى .

وكان هذا التخيير قبل إنعقاد النكاح فكان ذلك ترجيحاً لها عنده فليس فيه جهل المعقود عليها .

« على أن تأجرنى ثمانى حجج » أى على أن تكون أجيراً لى ثمان سنوات ترعى لى فيها غنمى ، والحجج جمع حجة وهى السنة مشتقة من اسم الحج لأن الحج يقع كل سنة وموسم الحج يقع فى آخر شهر من السنة العربية والتزام جعل تزويجه مشروطا بعقد الإجارة بينهما عرض منه على موسى وليس بعقد نكاح ولا إجارة حتى يرضى موسى .

وفى هذا العرض دليل لمسألة جمع عقد النكاح مع عقد الإجارة ، والمسألة أصلها من السنة حديث المرأة التى عرضت نفسها على النبى ﷺ فلم يتزوجها وزوجها من رجل كان حاضرا بمجلسه ولم يكن عنده مايصدقها فزوجه إياها بما معه من القرآن ، أى على أن يعلمها إياه .

والمشهور من مذهب مالك أن الشرط المقارن لعقد النكاح إن كان

مما ينافى عقد النكاح فهو باطل ويفسخ النكاح قبل البناء ويثبت بعده بصداق المثل .

وأما غير المنافى لعقد النكاح فلا يفسخ النكاح لأجله ولكن يلغى الشرط .

وعن مالك أيضاً تكره الشروط كلها إبتداء فإن وقع مضى .

وقال أشهب وأصبغ : الشرط جائز واختاره أبو بكر بن العربى وهو الحق ولقول النبى ﷺ .

« أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم عليه الفروج » .

وظاهر الآية أيضاً أن الإجارة المذكورة جعلت مهراً للبنت .

ويحتمل أن المشروط التزام الإجارة لا غير ، وأما المهر فتابع لما يعتبر فى شرعهم ركنا فى النكاح ، والشرائع قد تختلف فى معانى الماهيات الشرعية .

وإذا أخذنا بظاهر الآية كانت دالة على أنهما جعلا المهر منافع إجارة الزوج لشعيب فيحتمل أن يكون ذلك برضاها لأنها سمعت وسكتت بناء على عوائد مرعية عندهم بأن ينتفع بتلك المنافع أبوها :

ويحتمل أن يكون لولى المرأة بالأصالة إن كان هو المستحق للمهر فى تلك الشريعة فإن عوائد الأمم مختلفة فى تزويج ولايام .

وإذ قد كان فى الآية إجمال لم تكن كافية فى الاحتجاج على جواز جعل مهر المرأة منافع من إجارة زوجها فيرجع النظر فى صحة جعل المهر إجارة إلى التخريج على قواعد الشريعة والدخول تحت عموم معنى المهر ، فإن منافع الإجارة ذات قيمة فلا مانع من أن تجعل مهراً .

والتحقيق من مذهب مالك أنه مكروه ويمضى .

وأجازه الشافعى وعبد المالك بن حبيب من المالكية .

وقال أبو حنيفة : لا يجوز جعل المهر منافع حر .

ويجوز كونه منافع عبد، ولم ير فى الآية دليلا لأنها تحتمل أن يكون النكاح مستوفيا شروطه فوقع الإجمال فيها .

وإذ قد كان حكم شرع من قبلنا مختلفا فى جعله شرعا لنا كان حجة مختلفا فيها بين علماء الأصول فزادها ضعفا فى هذه الآية الإجمال الذى تطرقها فوجب الرجوع إلى أدلة أخرى من شريعة الإسلام .

ودليل الجواز داخل تحت عموم معنى المهر فإن كانت المنافع المجعولة مهرا حاصلة قبل البناء فالأمر ظاهر ، وإن كان بعضها أو جميعها لا يتحقق إلا بعد البناء كما فى هذه الآية رجعت المسألة إلى النكاح بمهر مؤجل وهو مكروه غير باطل . وإلى الإجارة بعوض غير قابل للتبعيض بتبعيض العمل فإذا لم يتم الأجير العمل فى هذه رجعت إلى مسألة عجز العامل عن العمل بعد أن قبض الأجر .

وقد ورد فى الصحيح فى حديث المرأة التى وهبت نفسها للنبى ﷺ فظهر عليه أنه لم يقبلها وأن رجلا من أصحابه قال له : إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها . قال : هل عندك ما تصدقها ؟ إلى أن قال له ﷺ والتمس ولو خاتما من حديد ، قال : ما عندى ولا خاتم من حديد وأن النبى ﷺ قال له : ما معك من القرآن ؟ قال معى سورة كذا وسورة كذا لسور سماها قال له : قد ملكتكها بما معك من القرآن .

وفى رواية عن النبى أمره أن يعلمها عشرين آية مما معه من القرآن وتكون امرأته .

فإن صحت هذه الزيادة كان الحديث جاريا على وفق مافى هذه الآية وكان حجة لصحة جعل الصداق إجارة على عمل ، وإن لم تصح كما هو المشهور ـ فى كتب الصحيح فالقصة خصوصية ويقتصر على موردها

ولم يقع التعرض للأجر وقد علمت أنه إنكاحه البنت فاذا لم نأخذ بهذا الظاهر كانت الآية غير متعرضه للأجر إذ لاغرض فيه من سوق القصة فيكون جاريا على ماهو متعارف عندهم فى أجور الأعمال وكانت للقبائل عوائد فى ذلك :

وقوله : « فإن أتممت عشراً فمن عندك » جعل ذلك إلى موسى تفضلا منه إن اختاره ووكله إلى ماتكون عليه حاله فى منتهى الحجج الثمان من رغبة فى الزيادة ، وإتمام العشر من نفسك لامنى .

واحتج مالك بقوله : « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين » على أن للأب إنكاح ابنته البكر بدون إذنها وهو أخذ بظاهرها إذ لم يتعرض لاستئذانها .

ولمن يمنع ذلك أن يقول : إن عدم التعرض له لايقتضى عدم وقوعه .

وأراد شعيب أن يعرف بنفسه فقال « ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » يريد الصالحين بالناس فى حسن المعاملة ولين الجانب. قصد بذلك تعريف خلقه لصاحبه وليس هذا من تزكية النفس المنهى عنه ، لأن المنهى عنه ماقصد به قائله الفخر والتمدح ، فأما ما كان لغرض فى الدين أو المعاملة فذلك حاصل لداع حسن كما قال يوسف « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم »

كما أخبره أنه لايكون مكلفا له بالمشقة فقال «وماأريد أن أشق عليك»

أى ماأريد أن اشترط عليك مافيه مشقتك ، وهذا من السماحة الواردة فى حديث « رحم الله امرءا سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى »

وأجاب موسى عن كلام شعيب « قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على » وهذا قبول موسى لما أوجبه شعيب وبه تم التعاقد على النكاح وعلى الإجارة ، أى الأمر على ماشرطت على وعليك ولا اعتداء على الحق ، أى فلا تعتدى على ، فنفى جنس العدوان الذى منه عدوان مستأجره ، واستشهد موسى على نفسه وعلى شعيب بشهادة الله « والله على مانقول وكيل »

وأراد هنا أنه وكل على الوفاء بما تعاقدا عليه حتى إذا أخل أحدهما بشىء كان الله مؤاخذه .

العبرة من سياق هذا الجزء من القصة :

والعبرة من سياق القرآن لهذا الجزء من القصة المفتتح بقوله « ولما توجه تلقاء مدين » إلى « والله على مانقول وكيل »

١ — هو ماتضمنته من فضائل الأعمال ومناقب أهل الكمال وكيف هيأ الله موسى لتلقى الرسالة بأن قلبه فى أطوار الفضائل وأعظمها مصاهرة الصالحين .

٢ — ماتضمنته من خصال المروءة والفتوة التى استكنت فى نفسه من فعل المعروف ، وإغاثة الملهوف ، والرأفة بالضعيف ، والزهد والقناعة وشكر ربه على ماأسدى إليه

٣ — ماتضمنته من العفاف والرغبة فى عشرة الصالحين والعمل لهم ، والوفاء بالعقد والثبات على العهد :

٤ — حب القرى وتأمين الخائف والرفق فى المعاملة ليعتبر المشركون بذلك إن كان لهم اعتبار فى مقايسة تلك الأحوال بأجناسها من أحوال النبي ﷺ فيهتدوا إلى أن ماعرفوه به من زكى الخصال قبل رسالته وتقويم سيرته وذكاء سريرته وإعانته على نوائب الحق، وتزوجه بأفضل امرأة من نساء قومه إن هى إلا خصال فاذة فيه بين قومه وإن هى إلا بوارق لهطول سحاب الوحى عليه والله أعلم حيث يجعل رسالته .

٥ — ليأتسى المسلمون بالأسوة الحسنـــة من أخلاق أهل النبوة والصلاح

# الفصل الثاني

## بدء الرسالة

### رجوع موسى إلى أهله ودور العصا العجيب

عندما انتهت المدة استأذن موسى من صهره لرؤية أمه وأخته وأخيه هارون حيث اشتاق لهم وسيأخذ أهله معه ، ولم يجرؤ أن يكلم صهره على معاشه فأوعز موسى إلى زوجه صفورة أن تكلم أباها بأن يعطيهم غنما لمعيشتهم ، واحتاط موسى فلم يطلب وأرسل صفورة لتطلب من أبيها هذا الطلب ، فقال شعيب لبنته إن نتاج الغنم غير السود لكم أى بأن يكون لهم النتاج الملون ، وفهم شعيب أن السلالة لن تتغير ، فقال موسى لصفورة : إننا نسقى الغنم ونخرج لسقيها فكل نعجة تأتى لتشرب يأتى بعصاه — ولهادور عجيب فى حياته — يضربها ويقول : بسم الله اللهم اجعل مافى بطنها غير أسود يقول راوى الحديث ابن عباس وقد ورد من عدة طرق : مافى نعجة ولدت خروفا واحدا لونه أسود .

وبذلك صار النتاج ملونا بألوان غير السواد فلما خرج النتاج بهذه الصفة قال شعيب : المؤمنون عند شروطهم ، فقالت صفورة : ياأبتاه إنه ضرب كل نعجة بعصاه ، فقال شعيب : احرصى عليه ، ووصى بنته به وقال : دينه كمل ودنياه كملت وأرى عليه مخايل النبوة .

وقال القرآن عن العصا «وماتلك بيمينك ياموسى (١٧) قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها علــى غنمى ولى فيها مآرب أخرى » (١٨) سورة طه .

أراد الله أ يرى موسى كيفية الاستدلال عـلى المرسل إليهم بالمعجزة العظيمة ، وهى انقلاب العصا حية تأكل الحيات التى يظهرونها .

وإبراز انقلاب العصاحية فى خلال المحاورة لقصد تثبيت موسى ودفع الشك عن أن يتطرقه لو أمره لذلك دون تجربة لأن مشاهد الخوارق تسارع بالنفس بادىء ذى بدء إلى تأويلها وتدخل عليها الشك فى إمكان استتار المعتاد بساتر خفى أو تخييل فلذلك ابتدئ بسؤاله عما بيده ليوقن أنه ممسك بعصاه حتى إذا انقلبت حية لم يشك فى أن تلك الحية هى التى كانت عصاه .

والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنه فى مقام الاصطفاء ، وأن الكلام الذى سمعه كلام من قبل الله بدون واسطة متكلم معتاد ولا فى صورة المعتاد .

وظاهر الاستفهام أنه سؤال عن شىء أشير إليه أى ماتلك حال كونها بيمينك ؟

ففى هذا إيماء إلى أن السؤال عن أمر غريب فى شأنها ، ولذلك أجاب موسى ببيان بعض منافعها استقصاء لمراد السائل أن يكون قد سأل عن وجه اتخاذه العصا بيده لأن شأن الواضحات أن لا يسأل عنها إلا والسائل يريد من سؤاله أمرا غير ظاهر ، ولذلك لما قال النبى ﷺ فى خطبة حجة الوداع : « أى يوم هذا سكت الناس وظنوا أنه سيسميه بغير اسمه ، وفى رواية أنهم قالوا : الله ورسوله أعلم فقال : أليس يوم الجمعة ؟ إلخ .

فابتدأ موسى ببيان يكشف حقيقة المسؤول عنه فقال « هى عصاى »

وعقب موسى ببيان الغرض من اتخاذها لعله أن يكون هو قصد السائل فقال: «أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولى فيها مآرب أخرى» ففصل ثم أجمل لينظر مقدار اقتناع السائل حتى إذا استزاده بياناً زاده.

ومن منافعها: التوكؤ والاعتماد عليها.

والهش: الخبط وهو ضرب الشجرة بعصا ليتساقط ورقها لتأكله الغنم.

والمآرب: الأمور المحتاج إليها.

وفى العصا منافع كثيرة روى بعضها عن ابن عباس وقد أفرد الجاحظ من كتاب البيان والتبيين باباً لمنافع العصا.

وقد أشار بعض الأدباء من أن موسى أطنب فى جوابه بزيادة على ما فى السؤال لأن المقام مقام تشريف ينبغى فيه طول الحديث.

بدء الرسالة:

«فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله أمكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون» (٢٩) القصص.

لم يذكر القرآن أى الأجلين قضى موسى إذ لا يتعلق بتعيينه غرض فى سياق القصة، وعن ابن عباس «قضى أوفاهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل».

والأهل مراد به زوجه، ولم يكن معه إلا زوجه وابنان صغيران،

والمخاطب بالقول زوجه، ويكنى عن الزوجة بالأهل ، وفى الحديث « والله ما علمت على أهلى إلا خيراً » .

ولم تظهر النار إلا لموسى دون غيره من أهله لأنها لم تكن ناراً معتادة لكنها من أنوار عالم الملكوت جلاه الله لموسى فلا يراه غيره ، يؤيد هذا تأكيده الخبر بـ « إن » المشير إلى أن زوجه ترددت فى ظهور نار لأنها لم ترها .

والإيناس : الإحساس والشعور بأمر خفى فيكون فى المرئيات والأصوات .

والمراد بالخبر : خبر المكان الذى تلوح منه النار . ولعله ظن أن هنالك بيتاً يرجو استضافتهم إياه وأهله تلك الليلة، وإن لم يكن أهل النار أهل بيت يستضيفون .

بأن كانوا رجالا مقوين يأت منهم بجمرة نار ليوقد أهله ناراً من حطب الطريق للتدفؤ بها .

والشهاب : الجمر المشتعل ، والقبس : جمرة أو شعلة نار تقبس ، أى يؤخذ اشتعالها من نار أخرى ليشعل بها حطب .

والاصطلاء : أى التدفؤ بوهج النار قال « إذ قال موسى لأهله إنى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون »(٧) سورة النمل ،

وزيد فى سورة القصص « آنس من جانب الطور ناراً » ، وذلك مساو لقوله « إذ رأى ناراً فقال لأهله أمكثوا إنى آنست ناراً » (١٠) سورة طه .

والجذوة : العود الغليظ أو العود المشتعل ، وهذا يقتضى أنه كان

فى ظلمة ولم يجد ما يقتدح به ، وقيل : اقتدح زنده فلم يقدح وفى سورة طه قال«أو أجد على النار هدى» أى ألقى عارفاً بالطريق قاصداً السير فيما أسير فيه فيهدينى إلى السبيل ، قيل : كان موسى قد خفى عليه الطريق من شدة الظلمة وكان يحب أن يسير ليلا .

وقدأجرى الله على لسان موسى معنى هذه الكلمة إلهاماً إياه أنه سيجد عند تلك النار هدى عظيما ، ويبلغ قومه منه ما فيه نفعهم .

وإظهار النار لموسى رمز ربانى لطيف ، إذ جعل اجتلابه لتلقى ما به إنارة ناس بدين صحيح بعد ظلمة الضلال وسوء الاعتقاد .

## أختيار الله لموسى :

« فلما أتاها نودى يا موسى (١١) إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى (١٢) وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى (١٣) » سورة طه .

بهذا النداء علم موسى أن الكلام موجه إليه من قبل الله تعالى لأنه كلام غير معتاد والله تعالى لايغير العوائد التى قررها فى الأكوان إلالإرادة الإعلام بأن له عناية خاصة بالمغير فالله تعالى خلق أصواتاً خلقاً غير معتاد غير صادرة عن شخص مشاهد ، ولا موجهة له بواسطة ملك يتولى هو تبليغ الكلام لأن قوله «إنى أنا ربك» ، ظاهر فى أنه لم يبلغ إليه ذلك بواسطة الملائكة فلذلك قال تعالى «وكلم الله موسى تكليما» إذ علم موسى أن تلك الأصوات دالة على مراد الله تعالى والمراد التى تدل عليه تلك الأصوات الخارقة للعادة هو ما نسميه بالكلام النفسى ، وليس الكلام النفسى هو الذى سمعه موسى لأن الكلام النفسى صفة قائمة بذات الله تعالى منزه عن الحروف والأصوات والتعلق بالأسماع .

والإخبار عن ضمير المتكلم بأنه رب المخاطب لتسكين روعة نفسه عن خطاب لا يرى مخاطبه فإن شأن الرب الرفق بالمربوب .

وأكد الخبر بحرف إن لتحقيقه لأجل غرابته دفعاً لتطرق الشك عن موسى فى مصدر الكلام .

وأمره بخلع النعلين للإعلام بأنه ربه إشارة إلى أن ذلك المكان قد حله التقديس بإيجاد كلام من عند الله فيه .

وإنما أمره الله بخلع نعليه تعظيما منه لذلك المكان الذى سيسمع فيه الكلام الإلهى ، وروى الترمذى[1] عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « كانت نعلاه من جلد حمار ميت » .

وفيه أيضاً زيادة خشوع .

وهذه خصوصية لا يؤخذ منها حكم يقتضى نزع النعل عند الصلاة .

والواد : المفرج بين الجبال والتلال ،

والمقدس : المطهر المنزه .

وتقديس الأمكنة يكون بما يحل فيها من الأمور المعظمة وهو هنا حلول الكلام الموجه من قبل الله تعالى :

ومعنى «طوى» أنه أمر لموسى بأن يطوى الوادى ويصعد إلى أعلاه لتلقى الوحى ، وقد قيل : إن موسى صعد أعلى الوادى ،

وقيل : هو بمعنى المقدس تقديسين ، لأن الطى هو جعل الثوب على شقين ، فالمعنى المقدس تقديساً مضاعفاً .

---

(١) فى لبس الصوف من كتاب اللباس .

والظاهر أن «طوى» اسم لصنف من الأودية يكون ضيقاً بمنزلة الثوب المطوى أو غائرا كالبئر المطوية ، والبئر تسمى طوياً . وسمى واد بظاهر مكة « ذا طوى » يسن للحاج أو المعتمر القادم إلى مكة أن يغتسل عنده .

وقد أخبر الله عن اختيار موسى بقوله « وأنا اخترتك » .

والمراد : ما يوحى إليه حينئذ من الكلام ، وأما ما يوحى إليه فى مستقبل الأيام فكونه مأموراً باستماعه معلوم بالأحرى .

وفى سورة النمل « فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين(٨) ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم »(٩).

وأريد بـ « من فى النار » موسى فإنه لما حل فى موضع النور صار محيطا به .

وأريد ومن حولها جبريل الذى أرسل إليه بما نودى به والملائكة الذين وكل إليهم إنارة المكان وتقديسه إن كان النداء بغير واسطة جبريل بل كان من لدن الله تعالى .

وقيل : إن قوله «أن بورك من فى النار» إنشاء تحية من الله تعالى إلى موسى كما كانت تحية الملائكة لإبرهيم «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت» أى أهل هذا البيت الذى نحن فيه .

وأخبر الله منزها عما لا يليق بإلهيته فقال « سبحان الله رب العالمين » ليعلم موسى بأمرين :

أحدهما : أن النداء وحى من الله تعالى .

الثانى : أن الله منزه عما عسى أن يخطر بالبال أن حلالته فى ذلك المكان .

والمعنى : نزه الله تنزيها عن كل ما لا يليق به ومن أول تلك الأشياء تنزيهه عن أن يكون حالا فى ذلك المكان .

## تثبيت قلب موسى قبل تلقى الرسالة

تقديم صفة الله تعالى قبل إصدار أمره له بإلقاء العصا حيث قال : « إنى أنا الله رب العالمين » ليثبت بذلك قلب موسى من هول تلقى الرسالة وأن جميع الخلائق مسخرة له .

وتقديم هذا بين يدى ماسيلقى إليه من الأمر لإحداث رباطة جأش لموسى ليعلم أنه خلعت عليه النبوة إذ ألقى إليه الوحى ، ويعلم أنه سيتعرض إلى أذى وتألب عليه ، وذلك كناية على كونه سيصير رسولا وأن الله يؤيده وينصره على كل قوى . وليعلم أن ما شاهد من النار وما تلقاه من الوحى وما سيشاهده من قلب العصا حية ليس بعجيب فى جانب حكمة الله تعالى :

« فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعـــة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين » ٣٠ القصص

فى آيات سورة القصص زيادة « من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة » وهو واد فى سفح الطور وشاطئه : جانبه وصفته ووصف الشاطىء بالأيمن إن حمل الأيمن على أنه ضد الأيسر فهو أيمن باعتبار أنه واقـع على يمين المستقبل القبلة على طريقـة العرب من جعل القبلة هى الجهة الأصلية لضبط المواقع وهم ينعتون الجهات باليمين واليسار يريدون هذا المعنى .

وعلى ذلك جرى اصطلاح المسلمين فى تحديد المواقع الجغرافية وموقع أرضين فيكون الأيمن يعنى الغربى للجبل أى جهة مغرب الشمس من الطور ، ألا ترى أنهم سموا اليمن يمنا لأنه على يمين المستقبل باب الكعبة وسموا الشام لأنه على شآم المستقبل لبابها أى على شماله .

والبقعة هى القطعة من الأرض المتميزة عن غيرها والمباركة لما فيها

من اختيارها لنزول الوحى على موسى فعند البقعة التى تتصل بالشجرة سمع كلاما خارجا من الشجرة ، والشجرة هى شجرة العليق أوهى عوسجة وهى من شجر العضاه .

## بدء الرسالة

« وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يـاموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين(٣١) اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب »

أمر الله موسى أن يلقى عصاه فاهتزت واضطربت كأنها جان ، والجان هو ذكر الحيات وهو شديد الاهتزاز والتشبيه فى سرعـة الاضطراب لأن الحيات خفيفة التحرك ، وأما تشبيه العصا بالثعبان فى آية « فإذا هى ثعبان مبين » فذلك لضخامة الجرم وقد ولى توليا قويا لا تردد فيه . وكان ذلك التولى منه لتغلب القوة الواهمـة التى فى جبلة الإنسان على قوة العقل الباعثة على التأمل ، إذ كانت القوة الواهمة متأصلة فى الجبلة سابقة على ما تلقاه من التعريض بالرسالة ، وتأصل القوة الواهمة يزول بالتخلق وبمحاربة العقل للوهم فلا يزالان يتدافعان ويضعف سلطان الوهم بتعاقب الأيام والنهى عن الخوف مستعمل فى النهى عن استمرار الخوف لأن خوفه قد حصل ، والخوف الحاصل لموسى عليه السلام خوف رعب من انقلاب العصا حية وليس خوف ذنب .

وفى سورة النمل قال « إنى لا يخاف لدى المرسلون » أى لايجبن لدى المرسلون لأنى أحفظهم ، وهو كناية عن تشريفه بمرتبة الرسالة فهو فى حضرته حين تلقى الرسالة .

وإذ قد كان انقلاب العصا حية حصل حين الوحى كان تابعا لما سبقه من الوحى وهـذا تعليم لموسى عليه السلام التخلق بخلق المرسلين من

ورباطة الجأش وليس فى النهى حط لمرتبة موسى عليه السلام عن مراتب غيره من المرسلين وإنما هو جار على طريقة مثالك لا يبخل .

والمراد النهى عن الخوف الذى حصل له من انقلاب العصا حية وعن كل خوف يخافه كما فى قوله « فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى »

والغرض من إظها ذلك لموسى أن يعرف أن العصا تطبعت بالانقلاب حية فيتذكر ذلك عند مناظرة السحرة لئلا يحتاج حينئذ إلى وحى ثم ذكر له معجزة أخرى « واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى(٢٢) لنريك من آياتنا الكبرى »(٢٣) سورة طه

علمه الله إياهـا حتى إذا تحدى فرعون وقومه عمل مثل ذلك أمام السحرة ، فهذا تمرين على معجزة ثانية متحد الغرض مع إلقاء العصا .

والجناح : العضد وما تحته إلى الإبط ، أطلق عليه ذلك تشبيها بجناح الطائر .

والمعنى : ألصق يدك اليمنى التى كنت ممسكا بها العصا وكيفية إلصاقها بجناحه أن تباشر جلد جناحه بأن يدخلها فى جيب قميصه حتى تماس بشرة جنبه كما قال فى سورة النمل « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » جعل الله تغير لون جلد يده عنـــد مماستها جناحه تشريفا لأكثر ما يناسب من أجزاء جسمه بالفعل والانفعال .

ومعنى « من غير سوء » من غير مرض مثل البرص والبهق بأن تصير بيضاء ثم تعود إلى لونها المماثل لون بقية بشرته .

والمقصود من ذلك أن يعجل له ما تطمئن له نفسه من تأييد الله تعالى إياه عند لقاء فرعون وهذه آية من تسع آيات حيث قال « فى تسع آيات إلى فرعون وقومه »

والآيات هي : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد والقمل ، والضفادع والدم ، والقحط ، وانفلاق البحر وهو أعظمها وقد جمعها الفيروز ابادى فى بيت ذكره فى مادة ( قسع ) من القاموس وهو :

عصا سنة بحر جراد وقمل    يد ودم بعد الضفادع طوفان

## جواب موسى بعد تكليفه بالرسالة

« قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون »(٣٣) القصص

والمعنى أخاف أن يذكروا قتلى القبطى فيقتلون فهذا كالاعتذار وهو يعلم أن رسالة الله لا يتخلص منها بعذر ، ولكنه أراد أن يكون فى أمن إلهى من أعدائه فهذا تعريض بالدعاء ومقدمة لطلب تأييده بهارون أخيه

وفى سورة الشعراء « قال رب إنى أخاف أن يكذبون (١٢) ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون (١٣) ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون(١٤) الشعراء

افتتاح مراجعته بنداء الله بوصف الرب مضافا إليه تحنين واستسلام وإنما خاف أن يكذبوه لعلمه بأن مثل هذه الرسالة لا يتلقاها المرسل إليهم إلا بالتكذيب ، وجعل نفسه خائفا من التكذيب لأنه لما خلعت عليه الرسالة عن الله وقر فى صدره الحرص على نجاح رسالته فكان تكذيبه فيها مخوفا منه ، فيضيق صدره من عدم اهتدائهم .

والمعنى أنه يأسف ويكمد لتكذيبهم إياه ويجيش فى نفسه روم إقناعهم بصدقه وتلك الخواطر إذا خطرت فى العقل نشأ منها إعداد البراهين ، وفى ذلك الإعداد تكلف وتعب للفكر فإذا أبانها أحس بارتياح وبشبه السعة فى الصدر فسمى ذلك شرحا للصدر ولذلك سأل موسى ربه « رب اشرح لى صدرى »

وأراد بضيق الصدر تكاثر خواطر الاستدلال فى نفسه على الذين كذبوه ليقنعهم بصدقه حتى يحس كأن صدره قد امتلأ والشأن أن ذلك ينقص شيئاً بعد شىء بمقدار مايفصح عنه صاحبه من إبلاغه إلى السامعين فإذا كانت فى لسانه حبسة وعى بقيت الخواطر متلجلجة فى صدره والمعنى ويضيق صدرى حين يكذبوننى ولاينطلق لسانى ، لأنه أيقن بحصول ذلك لأنه جبلى عند تلقى التكذيب ، ولأن أمانة الرسالة والحرص على تنفيذ مراد الله يحدث ذلك فى نفسه لا محالة ، وقد كان انحباس لسانه يقينا عنده لأنه كان كذلك .

وإنما سأل الله الإرسال إلى هارون ولم يسأله أن يكلم هارون كما كلمه هو لأن هارون كان بعيدا عن مكان المناجاة كأنه قال فأرسل ملكا بالوحى إلى هارون أن يكون معى .

« وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » ٣٤ القصص :

إن موسى لايريد التنصل من التبليغ ولكنه أراد تأييده بأخيه ، وإنما عينه ولم يسأل مؤيدا ما لعلمه بأمانته وإخلاصه لله ولأخيه وعلمه بفصاحة لسانه وأن يكون ردءا له وعونا .

ومعنى تصديقه إياه أن يكون سببا فى تصديق فرعون وملئه إياه بإبانته عن الأدلة التى يلقيها « هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى » وليس التصديق أن يقول لهم : صدق موسى ، لأن ذلك يستوى فيه الفصيح وذو الفهاهة وإنما يكون سببا فى تصديق فرعون وملئه .

استجابة دعوة موسى

« قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » ٣٥ القصص .

استجاب الله له دعوته وزاده تفضلا بما لم يسأله فاستجابة الدعوة الثانية بقوله « سنشد عضدك بأخيك » ، واستجابة الأولى بقوله « فلا يصلون إليكما » ، والتفضل بقوله « ويجعل لكما سلطانا » فأعطى موسى ما يماثل ما لهارون من المقدرة على إقامة الحجة إذ قال « ونجعل لكما سلطاناً » .

وقد دل على ذلك ما تكلم به موسى عليه السلام من حجج فى مجادلة فرعون كما سيأتى ، وما خاطب به بنى إسرائيل ، ولم يحك فى القرآن ان هارون تكلم بدعوة فرعون على ان موسى سأل الله تعالى ان يحلل عقدة من لسانه كما سيأتى ولا شك ان الله أستجاب له .

وقد أيده بأخيه ، وجعل له السلطان بمعنى التسلط على القلوب والمهابة فى قلوب الأعداء والرعب منهما كما ألقى عليه المحبة حين التقطه آل فرعون .

وأخبره بأنهم لا يصلون إليهما « فلا يصلون إليكما » أى لا يؤذونكما بسوء وهو القتل ونحوه أو نجعل لكما سلطانا عليهم بآياتنا حتى تكون رهبتهم منكما آية من آياتنا .

أو يصرفون عن أذاكم بآيات منا كقول النبى ﷺ «نصرت بالرعب فقد صرف قوم فرعون عن الإقدام على أذاهما مع مالديهم من القوة وما هم عليه من العداوة .

مطالب موسى من ربه وإجابة الله لها

« قال رب اشرح لى صدرى (٢٥) ويسر لى أمرى (٢٦) واحلل عقدة من لسانى (٢٧) يفقهوا قولى (٢٨) واجعل لى وزيرا من أهلى (٢٩) هارون أخى (٣٠) اشدد به أزرى (٣١) وأشركه فى أمرى (٣٢) كى

نسبحك كثيراً (٣٣) ونذكرك كثيراً (٣٤) إنك كنت بنا بصيراً (٣٥) قال قد أوتيت سؤلك ياموسى » (٣٦) سورة طه .

لما أظهر الله له الآيتين علم بذلك أنه مؤيد من الله تعالى فهو يواجه أعظم ملوك الأرض يومئذ بالموعظة ومكاشفته بفساد حاله .

وقد تلقى موسى الأمر وسأل الله الإعانة عليه وخلق الأسباب التى تعينه على تبليغ الدعوة وإعطائه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجة .

ورتب موسى الأشياء التى سألها على حسب ترتيبها فى الواقع على الأصل فى ترتيب الكلام مالم يكن مقتضى للعدول عنه .

فالشرح : إزالة مافى نفس الإنسان من خواطر تكدره أو توجب تردده فى الإقدام على عمل ما .

والمعنى : أزل عن فكرى الخوف ونحوه مما يعترض الإنسان من عقبات تحول بينه وبين الانتفاع بإقدامه وذلك من العسر فسأل تيسير أمره أى إزالة الموانع الحافة بماكلف به .

فقال ويسر لى أمرى ، والمراد أمر الرسالة كما فى قوله « وأشركه فى أمرى » والتيسير : جعل الأمر يسيرا .

ثم سأل سلامة آلة التبليغ وهو اللسان بأن يرزقه فصاحة التعبير والمقدرة على أداء مراده بأوضح عبارة ، فشبه حبسة اللسان بالعقدة فى الحبل أو الخيط ونحوهما لأنها تمنع سرعة استعماله ، فهو لايبين الكلام .

وزيادة « لى » بعد « اشرح » وبعد « يسر » إطنابه أى اشرح صدرى لأجلى ويسر أمرى لأجلى وهى اللام التى تفيد تقوية البيان ،

فكان قوله لى فيهما زيادة بيان ، وهو ضرب من الإلحاح فى الدعاء لنفسه .

ولم يأت بذلك مع قوله « واحلل عقدة من لسانى » لأن ذلك سؤال يرجع إلى تبليغ رسالة الله إلى فرعون فليست فائدتهما واجعة إليه حتى يأتى لها بلام التبيين :

وعدل عن أن يقول : عقدة لسانى ليتأتى التنكير المشعر بأنها عقدة شديدة .

« واجعل لى وزيرا من أهلى » أى اجعل معينا من أهلى .

وخص هارون لفرط ثقته به ولأنه كان فصيح اللسان مقوالا ، فكونه من أهله مظنة النصح له وكونه أخاه أقوى فى المناصحة ، وكونه الأخ الخاص لأنه معلوم عنده بأصالة الرأى .

سأل الله أن يجعله معينا له فى أعماله ، وسأله أن يأذن له بأن يكون شريكا فى أمر رسالته .

« اشد به أزرى » أى أشدد به ظهرى فلما كان الظهر يجمع حركة الجسم وقوام استقامته أطلق اسمه على القوة فيكون الكلام تمثيلا لهيئة المعين والمعان بهيئة مشدود الظهر بحزام ونحوه وشاده

وعلل موسى عليه السلام سؤاله تحصيل ماسأله لنفسه ولأخيه بأن يسبحا الله كثيرا ويذكرا الله كثيرا ، ووجه ذلك أن فيما سأله لنفسه تسهيلا لأداء الدعوة بتوفر آلاتها ووجود العون عليها وذلك مظنة تكثيرها .

وأيضا فيما سأله لأخيه تشريكه فى الدعوة ولم يكن لأخيه من قبل وذلك يجعل من أخيه مضاعفة لدعوته .

وذلك يبعث أخاه أيضا على الدعوة ، ودعوة كل منهما تشتمل على التعريف بصفات الله وتنزيهه فهى مشتملة على التسبيح ، وفى الدعوة حث على العمل بوصايا الله تعالى عباده ، وإدخال الأمة فى حظيرة الإيمان والتقوى ، وفى ذلك إكثار من ذكر الله بإبلاغ أمره ونهيه ألا ترى إلى قوله تعالى « إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى أى لا تضعفا فى تبليغ الرسالة .

وأيضا فى التعاون على أداء الرسالة تقليل من الاشتغال بضرورات الحياة ، إذ يمكن أن يقسما العمل الضرورى لحياتهما فيقل زمن اشتغالهما بالضروريات وتتوفر الأوقات لأداء الرسالة ، وتلك فائدة عظيمة لكليهما فى التبليغ .

والذى ألجأ موسى إلى سؤال ذلك علمه بشدة فرعون وطغيانه ، ومنعه الأمة من مفارقة ضلالهم .

فعلم أن فى دعوته فتنة للداعى فسأل الإعانة على الخلاص من تلك الفتنة ليتوفر للتسبيح والذكر كثيرا .

« إنك كنت بنا بصيرا » أى لأنك تعلم حالى وحال أخى ، وأنى مادعوتك بما دعوت إلا لأننا محتاجان لذلك ، وفيه تفويض إلى الله تعالى بأنه أعلم بما فيه صلاحهم ، وأنه ماسأل سؤاله إلا بحسب مابلغ إليه علمه .

وقد استجاب الله لدعائه فقال « قد أوتيت سؤلك ياموسى » وهذا وعدله بالإجابة وتصديق له فيما توسمه من المصالح فيما سأله لنفسه ولأخيه .

وهذا يدل على أن العقدة زالت عن لسانه ، ولذلك لم يحك فيما بعد أنه أقام هارون بمجادلة فرعون .

الأمر بالذهاب إلى فرعون أثناء تكليم الله تعالى لموسى

« اذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى » (٤٣) طه .

أمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون ، وأن يذهب أخوه معه ، ومعنى ذلك أن يبلغ أخاه أن الله أمر بمرافقته ، لأن هارون لم يكن حاضرا حين كلم الله موسى فى البقعة المباركة من الشجرة ، ولأنه لم يكن الوقت وقت الشروع فى الذهاب إلى فرعون ، فتعين أن الأمر لطلب حصول الذهاب فى المستقبل عند الوصول إلى مصر بلد فرعون ، وعند لقائه أخاه هارون .

وإبلاغه أمر الله إياه فقرينة عدم إرادة الفور هنا قائمة .

وسيكون ذهابه مصاحبا للدلائل التى تدل على صدقه لدى فرعون .

« ولاتنيا » أى لا تضعفا فى الدعوة ، ثم أمر الله موسى قائلا « إذهبا إلى فرعون إنه طغى (٤٣) فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » (٤٤) سورة طه .

وهذا أمر لموسى بأن يذهب وأن يأمر أخاه بالذهاب معه ، فقد كان هارون غائباً .

وقد طوى ما بين خطاب الله موسى وما بين حكاية « قالا ربنا إننا نخاف » ، والتقدير : فذهب موسى ولقى أخاه هارون وأبلغه أمر الله له بما أمره فقالا ربنا إننا نخاف إلخ .

وقد علم أن القصد من الذهاب إلى فرعون لكفه عن طغيانه .

وأمرهما بالقـــول اللين أى الكلام الدال على معانى الترغيب ،

وإستدعاء الامتثال بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرأى مايتقبل به الحق ، ويميز به بين الحق والباطل مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأى المخاطب أو تجهيله .

فشبه الكلام المشتمل على المعانى الحسنة بالشىء اللين ، واللين حقيقة من صفات الأجسام ، وهو رطوبة ، ملمس الجسم وسهولة ليه ، وضد اللين الخشونة ويستعار اللين بسهولة المعاملة والصفح واللين من شعار الدعوة إلى الحق قال تعالى :

« وجادلهم بالتى هى أحسن » وقال « فبما رحمة من الله لنت لهم » ومن اللين فى دعوة موسى لفرعون قوله تعالى :

« فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى » وقوله : « والسلام على من اتبع الهدى » إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الإهتداء لها لإظهار العظمة ، وغلظة القول بدون جدوى ، فإذا لم ينفع اللين مع المدعو وأعرض واستكبر جاز فى موعظته الإغلاظ معه قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم » .

وقال تعالى عن موسى « إنا قـــد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » .

والترجى المستفاد من قوله « لعله يتذكر أو يخشى » .

إما تمثيل لشأن الله فى دعوة فرعون بشأن الراجى .

وإما أن يكون إعلاماً لموسى وفرعون بأن يرجوا ذلك فيكون النطق بحرف الترجى على لسانهما .

كما تقول للشخص إذا أشرت عليه بشيء : فلعله أن يصادفك تيسير ، وأنت لا تريد أنك ترجو ذلك ولكن بطلب رجاء من المخاطب .

والتذكر : من الذكر أى النظر أى لعله ينظر نظر المتبصر فيعرف الحق أو يخشى حلول العقاب به فيطيع عن خشية لا عن تبصر ، وكان فرعون من أهل الطغيان وإعتقاد أنه على الحق ، فالتذكر : أن يعرف أنه على الباطل والخشية : أن يتردد فى ذلك فيخشى أن يكون على الباطل فيحتاط لنفسه بالأخذ بما دعاه إليه موسى .

وبهذا انتهى تكليم الله لموسى .

عزم موسى وهارون على الذهاب إلى فرعون

« قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ( ٤٥ ) قالا لاتخافا إننى معكما أسمع وأرى ( ٤٦ ) فأتياه فقولا إنا رسولا ربك » سورة طه .

لقد عزم موسى وهارون على الذهاب إلى فرعون فناجيا ربهما « قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » لأن غالب التفكير فى العواقب والموانع يكون عند العزم على الفعل والأخذ فى التهيؤ له ، ولذلك أعيد أمرهما بقوله تعالى « فأتياه » .

وقالا إننا نخاف أن يعجل بعقابنا بالقتل أو غيره من العقوبات قبل أن نبلغه ونحجه .

ونخاف أن يخامره كبره فيعد ذكرنا إلها دونه تنقيصاً له وطعناً فى دعواه الإلهية فيصدر منه ما يطغى على الله بالتنقيص كقوله « ما علمت لكم من إله غيرى .

وقوله « لعلى أطلع إلى إله موسى » وبذلك حذف متعلق يطغى حينئذ لتنزيهه عن التصريح به فى هذا المقام ، والتقدير أو أن يطغى عليك فيتصلب فى كفره ، ويعسر صرفه عنه .

وفى التحرز من ذلك غيرة على جانب الله تعالى وفيه أيضاً التحرز من رسوخ عقيدة الكفر فى نفس الطاغى فيصير الرجاء فى إيمانه بعد ذلك أضعف منه فيما قبل وتلك مفسدة فى نظر الدين .

وطمأنهما الله بعدم حصول شىء من الأمرين وأنه حافظهما من كل ما يخافانه . فهو يعلم الأقوال والأفعال فلذلك أمر بإتيانه ودعوته .

وفى سورة الشعراء « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين » فبادأة خطابهما لفرعون بأن وصفا الله بصفة رب العالمين لمجابهة فرعون بأنه مربوب وليس برب ، وإثبات ربوبية الله تعالى للعالمين ، ويقتضى وحدانية الله ، لأن العالمين شامل لجميع الكائنات ، فيشمل معبودات القبط كالشمس وغيرها ، فهذه كلمة جامعة لما يجب إعتقاده يومئذ .

وفى سورة طه « إنا رسولا ربك » فقد سبقت إشاعة عزمهما على الحضور عند فرعون لطلب إطلاق بنى إسرائيل .

وخص الرب بالإضافة إلى ضمير فرعون قصدا لإبلاغه الدعوة فقد علمهم فرعون أنه هو الرب .

مطالب موسى من فرعون

كان مطلب موسى وهارون إطلاق بنى إسرائيل « أن أرسل معنا بنى إسرائيل » ، وهذا يتضمن أن موسى أمر بإخراج بنى إسرائيل من بلاد الفراعنة لقصد تحريرهم من استعباد المصريين كما فى قوله « أن عبدت بنى إسرائيل » .

وقد سألاه الكف عن تعذيبهم « فأرسل معنا بنى إسرائل ولا تعذبهم » .

فكان فرعون يسخرهم فى الأعمال الشاقة ويعدهم كالعبيد والخدم جزاء إحلالهم بأرضه .

وأخبراه أنهما صاحبان لآية « قد جئناك بآية من ربك » وعلى استعداد لإظهارها إذا أراد فرعون ذلك .

وفى سورة الأعراف حكى قول فرعون « قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين » .

وهذه الآية هى إنقلاب العصا حية ، وقد تبعتها آيات أخرى .

والاقتصار على طلب إطلاق بنى إسرائيل يدل على أن موسى أرسل لإنقاذ بنى إسرائيل ، وتكوين أمة مستقلة بأن يبعث فيهم الشريعة المصلحة لهم ، والمقيمة لاستقلالهم وسلطانهم ، ولم يرسل لخطاب القبط بالشريعة ومع ذلك دعا فرعون وقومه إلى التوحيد لأنه يجب عليه تغيير المنكر الذى هو بين ظهرانيه .

وأيضا لأن ذلك وسيلة إلى إجابته طلب إطلاق بنى إسرائيل ، وهذا يؤخذ مما فى هذه الآية وما فى آية سورة الإسراء وما فى آية سورة النازعات .

## السكلام الذى أمرهما الله بتبليغه إلى فرعون

من السكلام الذى أمرهما الله بتبليغه « والسلام على من اتبع الهدى » والسلام : السلامة والإكرام ، وليس المراد به هنا التحية ، إذ ليس ثم معين يقصد بالتحية ، ولا يراد تحية فرعون لأنها إنما تكون فى ابتداء المواجهة لا فى أثناء الكلام ، وهذا كقول النبى — ﷺ — فى كتابه إلى هرقل وغيره : « أسلم تسلم » .

والمعنى : أى سلامة من اتبع الهدى ثابتة لهم دون ريبة ، وهـــذا تعريض بأن يطلب فرعون الهدى الذى جاء به موسى عليه السلام .

ثم جاء بقوله « إنا قد أوحى إلينا » للتعريض بإنذاره على التكذيب قبل حصوله منه ليبلغ الرسالة على أتم وجه قبل ظهور رأيه بتصريح توجيه الإنذار إليه ، وهذا من أسلوب القول اللين الذى أمرهما الله به ، ثم أخبره « أن العذاب على من كذب وتولى » أى إن عذابا على من كذب . وإطلاق السلام والعذاب دون تقييد بالدنيا أو الآخرة تعميم للبشارة والنذارة .

وهذا كله كلام الله الذى أمرهما بتبليغه إلى فرعون كما يدل لذلك قول تعالى « قال فمن ربكما ياموسى » :

### جواب فرعون عن السكلام الذى أمر الله موسى وهارون بإبلاغه

« قال فمن ربكما ياموسى ( ٤٩ ) قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » ( ٥٠ ) طه

هذا حكاية جواب فرعون عن السكلام الذى أمر الله موسى وهارون

بإبلاغه فرعون ، وفى الكلام حذف ، قصداً للإيجاز ، والتقدير : فأتياه فقالا له ماأمرا به فقال فمن ربكما ؟

ووجه فرعون الخطاب إليهما بالضمير المشترك ثم خص موسى بالإقبال عليه بالنداء لعلمه بأن موسى هو الأصل بالرسالة ، وأن هارون تابع له ، وهذا وإن لم يحتو عليه كلامهما فقد تعين أن يكون فرعون علمه من كيفية دخولهما عليه ومخاطبته ، ولأن موسى كان معروفاً فى بلاط فرعون لأنه ربيّه أو ربى أبيه فله سابقة اتصال بدار فرعون كما دل عليه قوله المحكى فى آية سورة الشعراء « قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين »

وإضافته الرب إلى ضميرهما لأنهما قالا له « إنا رسولا ربك »

وأعرض عن أن يقول فمن ربى ؟ إلى قوله « فمن ربكما » إعراضاً عن الاعتراف بالربوبية ولو بحكاية قولهما . لئلا يقع ذلك فى سمع أتباعه وقومه فيحسبوا أنه متردد فى معرفة ربه .

وتولى موسى الجـــواب لأنه خص بالسؤال بسبب النداء له دون غيره ...

وأجاب موسى بإثبات الربوبية لله لجميع الموجودات جرياً على قاعدة الاستدلال بالكلية على الجزئية ، لأن فرعون من جملة الأشياء فهو داخل فى عموم كل شىء .

وجاء بلفظ الإعطاء للتنبيه على أن الخلق والتكوين نعمة فهو استدلال على الربوبية وتذكير بالنعمة معاً .

والمعنى : تأمل وانظر هل أنت أعطيت الخلق أو لم تعط ، فلا شك أنه يعلم أنه ما أعطى كل شىء خلقه . فإذا تأمل عـــلم أن الرب هو الذى

أفاض الوجود والنعم على الموجودات كلها فآمن به بعنوان هذه الصفة وتلك المعرفة الموصلة إلى الاعتقاد الحق .

فقد خلق الأشياء ثم هدى إلى ما خلقهم لأجله ، وهداهم إلى الحق بعد أن خلقهم وأفاض عليهم النعم على حد قوله:

« ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين »

مجادلة فرعون لموسى بما حصل للقرون الماضية

« قال فما بال القرون الأولى » ( ٥١ ) قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » ( ٥٢ ) طه .

أراد فرعون أن يحاج موسى بما حصل للقرون الماضية الذين كانوا على ملة فرعون ، أى قرون أهل مصر ، أى من حالهم وشأنهم أفتزعم أنهم اتفقوا على ضلالة ، وهذه شنشنة من لا يجد حجة فيعمد إلى إثارة الشعب لاستبعاد كلام خصمه ، وهو فى معنى قول فرعون وملئه فى الآية الأخرى « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » ؟

ويجوز أن يكون فرعون أراد التشغيب على موسى حين نهضت حجته بأن ينقله إلى الحديث عن حال القرون الأولى : هل هم فى عذاب بمناسبة قول موسى « إن العذاب على من كذب وتولى »

فاذا قال : إنهم فى عذاب ، ثارت ثائرة أبنائهم فصاروا أعداء لموسى وإذا قال هم فى سلام ، نهضت حجة فرعون لأنه متابع لدينهم، ولأن موسى لما أعلمه بربه وكان ذلك مشعراً بالخلق الأول خطر ببال فرعون أن يسأله عن الاعتقاد فى مصير الناس بعد الفناء فسأل ما بال القرون الأولى؟

ما شأنهم وما الخبر عنهم ؟ وهو سؤال تعجيز وتشغيب .

وقول موسى فى جوابه : « علمهـا عند ربى فى كتاب » صالح للاحتمالين .

فعلى الاحتمال الأول يكون موسى صرفه عن الخوض فيما لايجدى فى مقامه ذلك الذى هو المتمحض لدعوة الأحياء لا البحث عن أحوال الأموات الذين أفضوا إلى عالم الجزاء :

وهذا نظير قول النبى — ﷺ — لما سئل عن ذرارى المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين »

وعلى الاحتمال الثانى : يكون موسى قد عدل عن ذكر حالهم خيبة لمراد فرعون وعدولا عن الاشتغال بغير الغرض الذى جاء لأجله ...

والحاصل : أن موسى تجنب التصدى للمجادلة والمناقضة فى غير ماجاء لأجله لأنه لم يبعث بذلك ، وفى هذا الإعراض فوائد كثيرة وهو عالم بمجمل أحوال القرون الأولى وغير عالم بتفاصيل أحوالهم وأحوال أشخاصهم .

إعراض فرعون عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى إلى تذكيره بنعمة الفراعنة عليه

« قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين (١٨) وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » (١٩) سورة الشعراء .

أعرض فرعون عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى فعدل إلى تذكيره بنعمة الفراعنة أسلافه على موسى ، وتخويفه من جنايته حسبانا بأن ذلك يقتلع الدعوة من جذرها ويكف موسى عنها ، وقصده من هذا الخطاب

إلجام موسى كى يتلعثم من خشية فرعون حيث أوجد له سببا يتذرع به إلى قتله ويكون معذورا فيه حيث كفر نعمة الولاية بالتربية ، واقترف جرم الجناية على النفس .

والاستفهام إما أن يكون تقريريا ، وجعل التقرير على نفى التربية مع أن المقصود الإقرار بوقوع التربية مجاراة لحال موسى فى نظر فرعون إذ رأى فى هذا الكلام جرأة عليه لاتناسب حال من هو ممنـــون لأسرته بالتربية لأنها تقتضى المحبة والبر ، فكأنه يرخى له بالعنان بتلقين أن يجحد أنه مربى فيهم حتى إذ أقر ولم ينكر كان الإقرار سالما من التعلل بخوف أو ضغط فهذا وجه تسليط الاستفهام التقريرى على النفى فى حين أن المقرر به ثابت ، وهذا كما تقول للرجل الذى طال عهدك برؤيته ألست فلانا ؟

والتقرير مستعمل فى لازمه وهو أن يقابل المقرر عليه بالبر والطاعة لا بالجفاء .

وإما أن يكون الاستفهام إنكاريا ، لأن لسان حال موسى فى نظر فرعون حال من يجحد أنه مربى فيهم ومن يظن نسيانهم لفعلته فأنكر فرعون عليه ذلك .

وعلى كلا الوجهين لايخلو من تنزيل موسى منزلة من يجحد ذلك .

والتربية : هى كفالة الصبى وتدبير شئونه ، ومعنى فينـــا أى عائلة ملك مصر .

والوليد : الطفل من وقت ولادته وما يقاربها فإذا نمى لم يسم وليدا وسمى طفلا ، ويعنى بذلك التقاطه من نهر النيل ، وذلك أن موسى ربى عند رمسيس الثانى من ملوك العائلة التاسعة عشر من عائلات فراعنة مصر حسب ترتيب المحققين من المؤرخين وخرج موسى من مصر بعد

أن قتل القبطى وعمره أربعون سنة لقوله « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما » .

وكان فرعون الذى بعث إليه موسى هو منفتاح الثانى ابن رمسيس الثانى وهو الذى خلفه فى الملك بعد وفاته فى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد ، فلا جرم كان موسى مربى والده ، فلذلك قال له ألم نربك فينا وليدا ، ولعله ربى مع فرعون هذا كالأخ .

والسنين التى لبثها موسى فيهم هى نحو أربعين سنة ، والفعلة التى فعلها هى قتله القبطى ، وأبهم تلك الفعلة للتهويل من شأنها ، وأنها مشتهرة معلومة مع تحقيق إلصاق تبعتها به حتى لا يجد تنصلا منها .

والمراد بالكفر فى قوله « وأنت من الكافرين » كفر نعمة فرعون من حيث اعتدى على أحد خاصته وموالى آله . وكان ذلك انتصارا لرجل من بنى إسرائيل الذين يعدونهم عبيد فرعون وعبيد قومه فجعل فرعون انتصار موسى لرجل من عشيرته كفرانا لنعمة فرعون ، لأنه يرى أن واجب موسى أن يعد نفسه من قوم فرعون فلا ينتصر لإسرائيلى .

وليس المراد الكفر بديانة فرعون ، لأن موسى لم يكن يوم قتل القبطى متظاهراً بأنه على خلاف دينهم ، وإن كان فى باطنه كذلك لأن الأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوة وبعدها .

## إقرار موسى وجوابه على فرعون

« قال فعلتها إذا وأنا من الضالين (٢٠) ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين (٢١) وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل (٢٢) سورة الشعراء .

كانت رباطة جأش موسى وتوكله على ربه باعثة له على الاعتراف بالفعلة ، وذكر ما نشأ عنها من خير له ، ليدل على أنه حمد أثرها وإن كان قد اقترفها غير مقدر ما جرته إليه من خير فابتدأ بالإقرار بفعلته ليعلم فرعون أنه لم يجد لكلامه مدخل تأثير فى نفس موسى .

وأخر موسى الجواب عن قول فرعون « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » لأنه علم أن القصد منه الإقصار من مواجهته بأن ربا أعلى من فرعون أرسل موسى إليه .

وابتدأ بالجواب عن الأهم من كلام فرعون وهو « فعلت فعلتك » لأنه علم أنه ادخل فى قصد الإفحام .

وليظهر لفرعون أنه لا يوجل من أن يطالبوه بدم ذلك القتيل ثقة بأن الله ينجيه من عدوانهم .

وقدم « فعلتها » على « إذاً » مبادرة بالإقرار ليكون كناية عن عدم خشيته من هذا الإقرار .

ومعنى المجازاة هنا أن قول فرعون فعلت فعلتك أى جازيت نعمتنا بما فعلت ، فقال له موسى : نعم فعلتها مجازيا لك تسليما لقوله ، لأن نعمته كانت جديرة بأن تجازى بمثل ذلك الجزاء أو أن الجزاء قصد به فرعون إفحام موسى وتهديده فجعل موسى الاعتراف بالفعلة جزاء لذلك التهديد كأنه قال : أنا لا أتهيب ما أردت .

وجعل موسى نفسه من الضالين ، إن كان كلام موسى منقولا إلى العربية فهو ضلال الفساد ، ومراده أن سورة الغضب أغفلته عن مراعاة حرمة النفس وإن لم يكن يومئذ شريعة ، فإن حفظ النفوس مما اتفق عليه شرائع البشر ويؤيده قوله « قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى » .

وإن كان مراده معنى ضلال الطريق أى كنت يومئذ على غير معرفة بالحق لعدم وجود شريعة وهو معنى الجهالة .

وعلى كلا الوجهين فجواب موسى فيه اعتراف بظاهر التقرير وإبطال لما يستتبعه من جعله حجة لتكذيبه برسالته عن الله ، ولذلك قابل قول فرعون « وأنت من الكافرين » بقوله « وأنا من الضالين » إبطالا لأن يكون يومئذ كافرا ، ولذلك كان هذا أهم بالإبطال وبهذا يظهر وجه الاسترسال فى الجواب بقوله « فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » .

أى فكان فرارى أن أنعم الله على فأصلح حالى وعلمنى وهدانى وأرسلنى ، فليس ذلك من موسى مجرد إطناب بل لأنه يفيد معنى أن الإنسان ابن يومه لا ابن أمه ، والأحوال بأواخرها ، فلا عجب فيما قصدت فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته وكان فراده مبتدئا منهم ومن الخوف منهم فقد ائتمروا على قتل موسى فقال « ففررت منكم لما خفتكم » فوهب الله له الحكم أى النبوة وهى الدرجة الأولى حين كلمه ربه ، ثم قال وجعلنى من المرسلين أى بعد أن أظهر له المعجزة وقال له « إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى » أرسله بقوله « اذهب إلى فرعون إنه طغى » .

ثم عاد فكر على امتنانه عليه بالتربية فأبطله وأبى أن يسميه نعمة بقوله « وتلك نعمة » إشارة إلى النعمة التى اقتضاها الامتنان فى كلام فرعون ، إذ الامتنان لايكون إلا بنعمة .

وهو نقض لامتنان فرعون بقلب النعمة نقمة بتذكيره أن نعمة تربيته ما كانت إلا بسبب إذلال بنى إسرائيل إذ أمر فرعون باستئصال أطفال بنى إسرائيل الذى تسبب عليه إلقاء أم موسى بطفلها فى اليم حيث

عثرت عليه امرأة فرعون ومن معها من حاشيتها ، وقد علموا أنه من أطفال بنى إسرائيل بسمات وجهه ولون جلده .

وفيه أن الإحسان إليه مع الإساءة إلى قومه لا يعد إحسانا ولا منة .

المجاورة بين موسى وفرعون والاستدلال على خلق الله للعوالم

« قال فرعون وما رب العالمين (٥٣) قال رب السموات والأرض وما وبينهما إن كنتم موقنين » (٢٤) الشعراء .

لما لم يرج تهويله على موسى عليه السلام ، وعلم انه غير مقلع عن دعوته لوى عنان جداله إلى تلك الدعوة فاستفهم عن حقيقة رب العالمين الذين ذكر موسى وهارون أنهما مرسلان منـــه إذ قالا « إنا رسول رب العالمين » .

وفرعون سأل موسى — عليه السلام — أن يبين حقيقة هذا الذى وصفه بأنه رب العالمين فقد كانت عقائد القبط تثبت آلهة متفرقة قد اقتسمت التصرف فى عناصر هذا العالم ، وأجناس الموجودات ، وتلك العناصر هى العالمون ، ولا يدينون بإله واحد فإن تعدد الآلهة المتصرفة ينافى وحدانية التصرف ، فلما سمع فرعون من كلام موسى إثبات رب العالمين فرغ سمعه بما لم يألفه من قبل لاقتضائه إثبات إله واحد وإنتفاء الإلهية عن الآلهة المعروفة عندهم ، على أنهم كانوا يزعمون أن فرعون هو المجتبى من الآلهة ليكون ملك مصر ، فهو مظهر الآلهة الأخرى فى تدبير المملكة « قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى وبهذا الانتساب إلى الآلهة وتمثيله إرادتهم فى الأرض كان فرعون يدعى إلها .

وقد كانت الأمم يومئذ فى غفلة عما عدا أنفسها فكانوا لا يفكرون

فى مختلف أحوال الأمم وعوائد البشر ، ولاتشعر كل أمة إلا بنفسها وخصائصها من آلهتها وملوكها ، فكان الملك لايشيع فى أمته غير قوته ، وانتصاره على الثائرين » ويخيل للناس أن العالم منحصر فى تلك الرقعة من الأرض ، فلا تجد فى آثار القبط صورا للأمم غير صور القبائل الذين يغزوهم فرعون ويأتى بأسراهم فى الأغلال والسلاسل خاضعين عابدين حتى يخيل لقومه أنه لما غلب أولئك فقد كان قهار البشر كلهم ، ويخفى أخبار إنكساره إلا إذا لحقه غلب عظيم من أمة كبرى بحيث لايستطيع اخفاءه ، فحينئذ ينتقل أسلوب التاريخ عندهم وتنتحل الدولة الجديدة أساليب الدولة الماضية ، وتنسى حوادث الماضى ، وتغلب على مخيلاتهم الحالة الحاضرة ، وللدعاة والمروجين أثر كبير فى ذلك وبهذا يتضح باعث فرعون على هذا السؤال الذى ألقاه على موسى ، وهو استفهام مشوب بتعجب وإنكار .

ومن دقائق هذه المجادلة أن الاستفسار مقدم فى المناظرات ولذلك ابتدأ فرعون بالسؤال عن حقيقة الذى أرسل موسى عليه السلام .

وكان جواب موسى بيانا لحقيقة رب العالمين بما يصير وصفه برب العالمين نصا لايحتمل غير ما أراده من ظاهره فأتى بشرح اللفظ بما هو تفصيل لمعناه إذ قال « رب السموات والأرض وما بينهما » فبذكر السموات والأرض وبعموم مابينهما حصل بيان حقيقة المسئول عنه .

وهذا تعريف لحقيقة الرب بخصائصه لأن ذلك غاية ماتصل إليه العقول فى معرفة الله أن يعرف بآثاره ،

وأراد موسى تشريك من حضر مجلس فرعون فقال « إن كنتم موقنين » وأشركهم في الدعوة تقصيا لكمال الدعوة وأن مؤاخذة القائل لاتقع إلا بعد اتضاح مراده من مقاله إذ لايؤاخذ بالمجملات .

تعجب فرعون من سكوت من حوله وجواب موسى عليهم

« قال لمن حوله ألا يستمعون » (٢٥) الشعراء أعرض فرعون عن خطاب موسى واستشار لنفوس الملأ من حوله وهم أهل مجلسه فاستفهم استفهام تعجب من حالهم ، كيف لم يستمعوا ماقاله موسى فنزلهم منزلة من لم يستمع تهييجا لنفوسهم كى لاتتمكن منهم حجة موسى .

وهذا التعجب من حال استماعهم وسكوتهم يقتضى التعجب من كلام موسى بطريق فحوى الخطاب ، وهو يعجب آخر لأن إثبات رب واحد لجميع المخلوقات منكر عند فرعون لأنه كان مشركا فيرى توحيد الإله لايصح السكوت عليه .

وكان جواب موسى عن تعجب فرعون من سكوت من حوله بقوله « قال ربكم ورب آبائكم والأولين » (٢٦) الشعراء .

ولما كان فى كلام فرعون إعراض عن مخاطبة موسى إذ تجاوزه إلى مخاطبة من حوله وجه موسى خطابه إلى جميعهم .

وقد رأى موسى أنهم جميعا لم يهتدوا إلى الاقتناع بالاستدلال على خلق الله للعوالم الذى ابتدأ به إذ هـــو أوسع دلالة على وجود الله ووحدانيته إذ له فى كل شئ آية تدل على أنه واحد فنزل بهم إلى الاستدلال بأنفسهم وبآبائهم إذ أوجدهم الله بعد العدم ، ثم أعدم آباءهم بعد وجودهم لأن أحوال أنفسهم وآبائهم أقرب إليهم وأيسر استدلالا على خالقهم .

فالاستدلال الأول يمتاز بالعموم ، والاستدلال الثانى يمتاز بالقرب من الضرورة فإن كثيرا من العقلاء توهموا أن السموات قديمة واجبة الوجود ، فأما آباؤهم فكثير من السامعين شهدوا إنعدام كثير من آبائهم بالموت ، وكفى به دليلا على انتفاء الدال على انتفاء الإلهية .

وشمل عموم الآباء بالإضافة وبالوصف بالأولين للرد على من يزعمونهم فى مرتبة الآلهة مثل الفراعنة القدماء الملقبين عندهم بأبناء الشمس ، والشمس معدودة فى الآلهة ، ويمثلها الصنم «آمون رع» .

فرعون يرمى موسى بالجنون

«قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون» (٢٧) الشعراء .

احتد فرعون لما ذكر موسى مايشمل آباءه المقدسين بذكر يخرجهم من صفة الإلهية زاعما أن هذا يخالف العقل بالضرورة فلا يصدر إلا من مختل الإدراك ، وكأنه رأى أن الاستدلال بخالقيتهم وخالقية آبائهم عبث ، لأن فرعون وملأه يرون تكوين الآدمى بالتولد وهم لايحسبون التكوين الدال على الخالقية إلا التكوين بالطفرة دون التدريج بناء على أن الأشياء المعتادة لاتتفطن إلى دقائقها العقول الساذجة فهم يحسبون تكوين الفرخ من البيضة أقل من تكوين الرعد ، وأن تكوين دودة القز أدل على الخالق من تكوين الآدمى مع أنه ليس كذلك ، فلذلك زعموا أن ادعاء دلالة تكوين الآباء والأبناء ودلالة فناء الآباء على ثبوت الإله الواحد رب الآباء والأبناء ضربا من الجنون ، إذ هو تكوين لم يشهدوا دقائقه والمعروف المألوف ولادة الأجنة وموت الأموات .

وأكد فرعون كلامه بحرفى التأكيد لأن حالة موسى لاتؤذن بجنونه فكان وصفه بالجنون معرضا للشك فلذلك أكد فرعون أنه مجنون ، يعنى أنه علم من حال موسى ما عسى أن لايعلمه السامعون .

وقصد بإطلاق وصف الرسول على موسى التهكم به بقرينة رميه بالجنون المحقق عنده .

وأضاف الرسول إلى المخاطبين ربئا بنفسه عن أن يكون مقصودا بالخطاب .

وأراد بذلك تهييج السامعين كيلا يتأثروا أو يتأثر بعضهم بصدق موسى لأن فرعون يتهيأ لإعداد العدة لمقاومة موسى لعلمه بأن له قوما فى مصر ربما يستنصر بهم .

الاستدلال بالشيء المشاهد كل يوم مرتين

« قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » (٢٨) الشعراء .

لما رأى موسى سوء فهمهم وعدم اقتناعهم بالاستدلال على الوحدانية بالتكوين المعتاد إذ التبس عليهم الأمر المعتاد بالأمر الذى لا صانع له ، انتقل موسى إلى ما لا قبل لهم بجحــــده ولا التباسه وهو التصرف العجيب المشاهد كل يوم مرتين كما انتقل إبراهيم عليه السلام من الاستدلال على وجود الله بالإحياء والإماتة لما تموه على النمرود حقيقة معنى الإحياء والإماتة ، فانتقل إبراهيم إلى الاستدلال بطلوع الشمس فيما حكى الله تعالى « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » فكانت حجة موسى هى حجة الخليل .

والمراد بالمشرق والمغرب : مكان شروق الشمس ومكان غروبها فى الأفق فيكون تحريكا للاستدلال بما يقع فى ذلك المكان من الأفق من شروق الشمس وغروبها ، فالله هو الخالق لذلك النظام اليومى ومالك لذلك الكون ، وما يقع فى خلال ذلك من الأحوال .

وما بين الشروق والغروب هو الضحى والزوال والعصر والاصفرار

وما بين الغروب فهو الشفق والفجر والإسفار وكلها دلائل على تكوين ذلك النظام العجيب المتقن .

وتلك الجهتان هما منتهى الأرض المعروفة للناس يومئذ فكأنه قيل رب طرفى الأرض « وهو كناية عن كون جميع الأرض ملكا لله ، وهـــذا استدلال عرفى إذ لم يكونوا يعرفون يومئذ ملكا يملك ما بين المشرق والمغرب ، وما كان ملك فرعون المؤله عندهم إلا لبلاد مصر والسودان ونبههم إلى استعمال عقولهم ليعاودوا النظر فيدركوا وجه الاستدلال .

ومن لطائف ذلك أن جعل ذلك مقابل قول فرعون إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، لأن الجنون يقابله العقل ، فكان موسى يقول لهم قولا لينا ابتداء ، فلما رأى منهم المكابرة ووصفوه بالجنون خاشنهم فى القول ، وعارض قول فرعون « إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » فقال « إن كنتم تعقلون » أى إن كنتم أنتم العقلاء أى فلا تكونوا أنتم المجانين .

### لجوء فرعون إلى التهديد وعرض موسى عليه آية

« قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين »(٢٩)

لما لم يجد فرعون لحجاجه نجاحا ورأى شدة شكيمة موسى فى الحق عدل عن الحجاج إلى التخويف والتهديد ليقطع دعوة موسى من أصلها ، وهذا شأن من قهرته الحجة وفيه كبرياء أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد .

وأقسم فرعون قائلا: لئن اتخذت وأصررت على أن لك إلها أرسلك وأن تبقى جاحداً الإله فرعون ، وكان فرعون معدودا إلها للأمة لأنه

يمثل الآلهة ، وهو القائم بإبلاغ مرادها فى الأمة فهو الواسطة « لأجعلنك واحداً ممن عرفت أنهم فى سجنى .

والمقصود تذكير موسى بهول السجن ، وقد كان السجن عندهم قطعا للمسجون عن التصرف بلا نهاية ، وكان لا يدرى متى يخرج منه قال تعالى « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين»

ولما رأى موسى من مكابرة فرعون عن الاعتراض بدلالة النظر مالا مطمع معه إلى الاسترسال فى الاستدلال لأنه متعام عن الحق عدل موسى إلى إظهار آية من خوارق العادة دلالة على صدقه .

وعرض عليه ذلك قبل وقوعه ليسد عليه منافذ ادعاء عدم الرضى بها « قال أولو جئتك بشىء مبين » أى أتجعلنى من المسجونين حتى ولو جئتك بشىء مبين .

واستفهمه استفهاما مشوبا بإنكار واستغراب على تقدير عدم اجتزاء فرعون بالشىء المبين وأنه ساجنه لا محالة إن لم يعترف بالهية فرعون قطعا لمعذرته من قبل الوقوع .

وأعرض فرعون عن التصريح بالتزام الاعتراض بما سيجىء به موسى فجاء بكلام مجمل إذ قال « فأت به إن كنت من الصادقين » أى على فرض صدقك ، وهو فرض ضعيف « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين » .

أى ثعبان ظاهر أنه ثعبان لا لبس فيه ولا تخيل ، والثعبان : الحية الضخمة الطويلة .

وأخرج يده من جيب قميصه فإذا هى شديدة البياض « ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » وكان لون جلد موسى السمرة فصارت بيضاء

لجميع الناظرين فى ذلك المجلس ، وهذا يفيد أن بياضها كان واضحا بينا مخالفا لون جلده بصورة بعيدة عن لون البرص .

المحاورة بين موسى وبين فرعون وملئه

«قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم (١٠٩) يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون (١١٠) قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين (١١١) يأتوك بكل ساحر عليم» (١١٢) سورة الأعراف .

وملأ قوم فرعون هم سادتهم وهم أهل مجلس فرعون ومشورته ، وقد كانت دعوة موسى أول الأمر قاصرة على فرعون فى مجلسه فلم يكن بمرأى ومسمع من العامة لأن الله تعالى قال فى آية أخرى «اذهبا إلى فرعون إنه طغى» (٤٣) سورة طه .

وقال فى هذه الآية «إلى فرعون وملئه» ، وإنما أشهرت دعوته فى المرة الثانية بعد اجتماع السحرة .

وإنما قالوا هذا الكلام على وجه الشورى مع فرعون واستنباط الاعتذار لأنفسهم عن قيام حجة موسى فى وجوههم فاعتلوا لأنفسهم بعضهم لبعض بأن موسى إنما هو ساحر عليم بالسحر أظهر لهم حالا عهد لهم بمثله من أعمال السحرة ، وهذا القول قد أعرب عن رأى جميع أهل مجلس فرعون .

وفرعون كان مشاركا لهم فى هذا ، لأن القرآن حكى عن فرعون فى سورة الشعراء أنه قال : «قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم»

وهو خطاب بعضهم لبعض ، حاصل من طوائف ذلك الملأ لطوائف يرددونه بينهم ، ويقوله بعضهم لبعض .

ووجه استفادتهم أن موسى يريد إخراجهم من أرضهم

١ — إما أنهم قاسوا ذلك على قـــول موسى « فأرسل معى بنى اسرائيل » بقاعدة ما جاز على المثل يجوز على المماثل ، يعنون أنه ما أظهر إخراج بنى اسرائيل إلا ذريعة لإخراج كل من يؤمن به ليتخذهم تبعا ويقيم بهم ملـكا خارج مصر فزعموا أن تلك مكيدة من موسى لثلم ملك فرعون .

٢ — وإما أن يكون ملأ فرعون محتويا على رجال من بنى إسرائيل كانوا مقربين عند فرعون ومن أهل الرأى فى المملـكة فهم المقصودون بالخطاب ، أى يريد إخراج قومكم من أرضكم التى استوطنتموها أربعة قرون ، وصارت لـكم موطنا كما هى للمصرين .

ومقصدهم من ذلك تذكيرهم بحب وطنهم وتقريبهم من أنفسهم . وإنساؤهم ما كانوا يلقون من اضطهاد القبط وإستدلالهم شعورا منهم بحرج الموقف

٣ — وإما لأنهم علموا أنه إذا شاع فى الأمة ظهور حجة موسى وعجز فرعون وملئه أدخل ذلك فتنة فى عامة الأمة فآمنوا بموسى وأصبح هو الملك على مصر ، فأخرج فرعون وملأه منها .

## تأخير المجادلة مع موسى إلى إحضار السحرة

« قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين أى أخر المجادلة مع موسى إلى إحضار السحرة الذين يدافعون سحره ، وحكى القرآن ذكر الأخ هنا للإشارة إلى أنه طوى ذكره فى أول القصة ، وقد ذكر فى غير هذة القصة ابتداء .

وأرسل فرعون المرسلين للبحث عن السحرة وجلبهم من مدائن مصر وجمعهم ، وكانت مدائن مصر فى ذلك الزمن كثيرة .

وقيل : أرادوا مدائن الصعيد، وكانت مقر العلماء بالسحر ، وقد بولغ فى قوة معرفتهم بالسحر حيث قال« بكل سحار عليم » سورة الشعراء(٣٧) للدلالة على إتقانهم فن السحر .

والشأن أن يكون ملأ فرعون عقلاء أهل سياسة فعلموا أن أمر دعوة موسى لا يكاد يخفى وأن فرعون إن سجنه أو عاند تحقق الناس أن حجة موسى غلبت فصار ذلك ذريعة للشك فى دين فرعون أن يلاينوا موسى ، وطمعوا أن يوجد فى سحرة مصر من يدافع آيات موسى فتكون الحجة عليه ظاهرة للناس .

## حضور السحرة عند فرعون ووجه دلالة تخييرهم

جاء السحرة من المدائن فحضروا عند فرعون وكان حضور السحرة عنده فى اليوم الذى عينه موسى للقاء السحرة وهو يوم الزينة أى يوم وفاء النيل أو يوم عاشوراء، وإشعارا بجدارتهم بالغلب وثقتهم بأنهم أعلم الناس بالسحر طلبوا أجراً عظيما يليق بمقام الملك ، وعظم العمل «فقالوا : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين » .

وأجابهم فرعون بنعم لكم أجر وإنكم لمن المقربين عندنا .

وقد جاءوا لإلقاء آلات سحرهم ، وزعموا أن موسى مثلهم فخيروا موسى بين أمرين فقالوا إما أن تبتدىء بإلقاء آلات سحرك ، وإما أن نبتدىء ، فاختر أنت أحد أمرين .

وفى هذا الإبتداء بالتخيير لثقتهم بمقدرتهم وأنهم الغالبون سواء ابتدأ موسى بالأعمال أم كانوا هم المبتدئون .

ووجه دلالة التخيير على ذلك أن التقدم فى التخييلات والشعوذة أنجح المبادىء لأن بديهيتها تمضى فى النفوس وتستقر فيها فتكون النفوس أشد تأثراً بها من تأثرها بما يأتى بعدها ، ولعلهم مع ذلك أرادوا أن يسبروا مقدار ثقة موسى بمعرفته مما يبدو منه من استواء الأمرين عنده أو من الحرص على أن يكون هو المقدم ، فإن لاستضعاف النفس تأثيراً عظيما فى استرها بها وإبطال حيلتها .

وقد جاءوا فى جانبهم بكلام يسترهب موسى ويهول شأنهم فى نفسه إذ اعتنوا بما يدل على ذواتهم بزيادة تقرير الدلالة فى نفس السامع المعبر عنها فى حكاية كلامهم بتأكيد الضمير فى قوله « وإما أن نكون نحن الملقين » .

وفى سورة طه « قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى» ( آية ٦٥ إلى ٦٨ طه) .

وهذا هو الخوف الثانى ، فقد خاف عند التمرين ، وخاف هنا «قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى» .

وبذلك ظهر استواء الأمرين عندهم وما كان جواب موسى إياهم

بقوله « ألقوا » استخفاف بأمرهم إذ مكنهم من مبادأة إظهار تخييلاتهم وسحرهم لأن الله قوى نفس موسى بذلك الجواب لتكون غلبته عليهم بعد أن كانوا هم المبتدئين أوقع حجة وأقطع معذرة ،

وبهذا يظهر أن ليس فى أمر موسى إياهم بالتقدم ما يقتضى تسويغ معارضة دعوة الحق لأن القوم كانوا معروفين بالكفر بما جاء به موسى فليس فى معارضتهم إياه تجديد كفر ، ولأنهم جاءوا مصممين على معارضته فليس الإذن لهم تسويغا ، ولكنهم خيروه فى التقدم أو يتقدموا ، فأختار أن يتقدموا لحكمة إلهية تزيد المعجزة ظهوراً .

ولأن فى تقديمه إياهم إبلاغاً فى إقامة الحجة عليهم ، ولعل الله ألقى فى نفسه ذلك .

وفى هذا دليل على جواز الإبتداء بتقرير الشبهة للذى يثق بأنه سيدفعها .

السحر تخيلات مرئية وتخويف الناظرين له

إن السحرة سحروا أعين الناس، وجعلوها متأثرة بالسحر بما ألقوا من التخيلات والشعوذة وهم بذلك قد سحروا العقول وكانت الأعين هى آلة إيصال التخيلات إلى الإدراك وهم إنما سحروا العقول ، ولذلك لو قيل سحروا الناس لأفاد ذلك ولكن يفوت لفتة التنبيه على أن السحر إنما هو تخيلات مرئية ، واسترهبوهم أى خوفوهم وذلك أنهم عززوا تخيلات السحر بأمور أخرى تثير خوف الناظرين لتزداد تمكن التخيلات من قلوبهم وتلك الأمور أقوال وأفعال توهم أن

سيقع شيء مخيف كأن يقولوا للناس خذوا حــذركم ، وحاذروا ، ولا تقتربوا ، وسيقع شيء عظيم ، وسيحضر كبير السحرة ، ونحو ذلك من التمويهات والخزعبلات ، والصياح ، والتعجب .

ومبنى السحر على التخيل والتخويف .

وقد وصف السحر بالعظيم ، لأنه من أعظم ما يفعله السحرة إذ كان مجموعا مما تفرق بين سحرة المملكة من الخصائص المستورة بالتخيلات الخفية أسبابها عن العامة .

## صدق موسى وصحة معجزته

لما ألقوا سحروا فقلنا لموسى أن ألق لهم عصاك قال تعالى : « وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك » الأعراف (١١٧) .

وبمجرد إلقاء العصا شرعت فى ابتلاع ما يأفكون ، وقد أبقاها فدبت فيها الحياة ، وانقلبت ثعبانا فإذا هى تلقف ، لأن من شأن الحيوان والعصا إذا دبت فيها الحياة صارت ثعباناً بدون تبديل شكل .

وإنما جعل السحر إفكا لأن ما يظهر منه مخالف للواقع ، فشبه بالخبر الكاذب كما أنه جاء بالمضارع فى قوله : « تلقف » و « يأفكون » للدلالة على التجديد والتكرير مع استحضار الصورة العجيبة أى فإذا هى يتجدد تلقفها لما يتجدد ويتكرر من إفكهم .

وتسمية سحرهم إفكار دليل على أن السحر لامعمول له وأنه مجرد تخييلات وتمويهات وصحت معجزة موسى عليه السلام ، وأن ما فعلته العصا هو من صنع الله تعالى ومن آثار قدرته ، وبطلت تخيلات الناس أن عصا السحرة وحبالهم تسعى كالحيات ، وعبر عن ذلك بقوله :

« ما كانوا يعملون » وهو السحر ، ولم يعبر عنه بالسحر إشارة إلى أنه كان سحراً عجيباً تكلفوا له ، وأتوا بمنتهى ما يعرفونه وقــد غلبوا فى ذلك المكان إثر تلقف العصا لإفكهم فقال : « فغلبوا هنالك » فأفاد بذلك مغلوبيتهم وظهورها لكل حاضر .

« وانقلبوا صاغرين » أى وقد تغيروا من الحال المعتادة إلى حال غريبة فصاروا صاغرين والصغار هو الذلة : فهى مذلة ظهور عجزهم ، ومذلة خيبة رجائهم ما أملوه من الأجر والقرب عند فرعون .

سجود السحرة لله ليقينهم بتأييد الله لموسى

إن رئيس السحرة كان كفيفاً لا يرى فقال لموسى . أعطنى العصا ، فأخذها فوجدها خشبة وعصا ،

فقال له : أنت رسول الله حقاً وسجدت السحرة عقب تلقف العصا ما يأفكون بدون مهلة ، والتعقيب كل شىء بحسبه ، فسجود السحرة متأخر عن مصيرهم ، ولكنه متأخر بزمن قليل ، وهو زمن انقداح الدليل على صدق موسى فى نفوسهم فإنهم كانوا أعلم الناس بالسحر فلا يخفى عليهم ما هو خارج عن الأعمال السحرية ، ولذلك لما رأوا تلقف عصا موسى لحبالهم وعصيهم جزموا بأن ذلك خارج عن طوق الساحر ، فعلموا أنه تأييد من الله لموسى وأيقنوا أن ما دعاهم إليه موسى حق ، فلذلك سجدوا ، وكان هذا خاصاً دون بقيــة الحاضرين ، ولذلك جاء بالاسم الظاهر دون الضمير قال تعالى : « وألقى السحرة ساجدين » ، الأعراف (١٢٠).

ولم يتمالكوا أن سجدوا بدون تريث ولا تردد فألقوا أنفسهم على الأرض بقصد الإفراط فى التعظيم .

وسجودهم كان لله الذى عرفوه حينئذ بظهور معجزة موسى والداعى إليه بعنوان كونه رب العالمين وقصدوا من قولهم « قالوا » ذلك الإعلان بإيمانهم بالله لئلا يظن الناس أنهم سجدوا لفرعون ، إذ كانت عادة القبط السجود لفرعون ، ولذلك وصفوا الله بأنه رب العالمين بالعنوان الذى دعابه موسى ولعلهم لم يكونوا يعرفون اسما علماء لله تعالى ، إذ لم يكن لله اسم عندهم ، وقد علم بذلك أنهم كفروا بإلهية فرعون .

وزادوا هذا القصد بيانا بالإبدال من « رب العالمين » قولهم « رب موسى وهارون » لئلا يتوهم المبالغة فى وصف فرعون بأنه رب جميع العالمين ، وتعين فى تعريف البـــدل طريق تعريف الإضافة لأنها أخصر طريق وأوضحه هنا ، لاسيما إذ لم يكونوا يعرفون اسما علما على الذات العلية ، وهذا مايقتضيه تعليم الله اسمه لموسى حين كلمه فقال : « إننى أنا الله » طه آية ( ١٤ ) .

## عجز فرعون وتهديده وجواب السحرة عليه

وفى طريق المحاورة قال فرعون كما حكاه القرآن « قال فرعون آمنتم به » أى آمنتم بما قاله موسى « قبل أن آذن لكم » أى لم يكفكم أنكم آمنتم بغيرى حتى فعلتم ذلك من غير استئذان « إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون » (١٢٣) الأعراف .

وقد ظن فرعون أنهم دبروه فى المدينة حين كانوا بها قبل الحضور إلى الصحراء التى وقعت فيها المحاورة ، من أجل أن يخرجوا بعض أهلها وهم بنو اسرائيل لأن موسى جاء طالبا لإخراج بنى اسرائيل .

وقد قال فرعون ذلك ردا على التهمة لهم لأنه لم يكن له علم بدقائق علم السحر حتى يفرق بينه وبين المعجزة الخارقة للعادة ، فظن أنها مكيدة

دبرها موسى مع السحرة ، وأنه لكونه أعلمهم أو معلمهم أمرهم فأتمروا بأمره قال تعالى : « قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » (٧١) سورة طه .

وأيا ما كان فعزمه على تعذيبهم مؤدى إلى الظلم ، لأنه ما كان يحق له أن يأخذهم بالتهمة « بله أن يعاقبهم على المصير إلى الحجة ، ولكنه لما أعجزته الحجة صار إلى الجبروت وأقـــدم على الوعيد بقوله « فسوف تعلمون » لقصد الإجمال فى الوعيد لإدخال الرعب فى قلوبهم ، ثم بين هذا الإجمال بقوله « لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف » ووقوع الجمع معرفا بالإضافة يكسبه العموم فيعم كل يد وكل رجل من أيدى وأرجل السحرة .

وقد بينت لفظ من موضع القطع بالنسبة إلى العضو الثانى ، والمعنى أنه يقطع من كل ساحر يدا ورجلا متخا لفتى الجهة غير متقابلتيها ، أى إن قطع يده اليمنى قطع رجله اليسرى والعكس ، وإنما لم يقطع القوائم الأربع لأن المقصود بقاء الشخص متمكنا من المشى متوكئا على عود تحت اليد من جهة الرجل المقطوعة .

وقد ارتقى فرعون فى الوعيد بالصلب حيث قال : « ثم لأصلبنكم أجمعين » (١٢٤) الأعراف .

والمعروف أن الصلب أن يقتل المرء مشدودا على خشبة ، وبذلك فقد توعدهم بنوعين من العذاب ، والوعيد موجه إلى جماعتهم فعلم أنه جعلهم فريقين فريق يعذب بالقطع من خلاف ، وفريق يعذب بالصلب والقتل فعلى هذا ليس المعنى على أنه يصلبهم بعد أن يقطعهم ، إذ لا فائدة فى تقييد القطع بكونه من خلاف حينئذ ، وقد يراد بالصلب : الصلب دون قتل فيكون أراد صلبهم بعد القطع ليجعلهم نكالا ينذعر بهم الناس ، كيلا

يقدم أحد على عصيان أمره من بعد فتكون ثم دالة على الترتيب والمهلة ، ولعل المهلة قصد منها مدة كي واندمال موضع القطع وهذا هو المناسب لظاهر قوله « أجمعين » المفيد أن الصلب ينالهم كلهم .

وكان جواب السحرة عن وعيد فرعون بأنه وعيد لايفيدهم لأنهم يعلمون أنهم صائرون إلى الله رب الجميع حيث « قالوا إنا إلى ربنــا منقلبون » (١٢٥) الأعراف .

وقد جاء هذا الجواب موجزا إيجازا بديعاً لأنه يتضمن أنهم يرجون ثواب الله على ما ينالهم من عذاب فرعون « ويرجون منه مغفرة ذنوبهم ويرجون العقاب لفرعون على ذلك .

وإذا كان المراد بالصلب القتل وكان المراد تهديد جميع المؤمنين كان قولهم « إنا إلى ربنا منقلبون » تشوقا إلى حلول ذلك بهم محبة لقاء الله تعالى فإن الله لما هداهم إلى الإيمان أكسبهم محبة لقائه ، ثم بينوا أن عقاب فرعون لاغضاضة عليهم منه ، لأنه لم يكن عن جناية تصمهم بل كان على الإيمان بآيات الله لما ظهرت لهم أي فإنك لاتعرف لنا سببا يوجب العقوبة غير ذلك .

### توجه السحرة إلى الله وعدم تحقق وعيد فرعون

وقد أنكر السحرة على فرعون فعله وتهديده وكراهة صدوره منه فقالوا : « وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين (١٢٦) الأعراف .

وقد انتقلوا من خطابهم لفرعون إلى التوجه إلى دعاء الله تعالى فطلبوا منه أن يجعل لهم طاقة لتحمل ما توعدهم به فرعون .

ولما كان ذلك الوعيد مما لاتطيقه النفوس سألوا الله أن يجعل

لنفوسهم صبرا قويا يفوق المتعارف ، فشبه الصبر بماء ، من تشبيه المعقول بالمحسوس ، وشبه خلقه فى نفوسهم بإفراغ الماء من الإناء ، فإن الإفراغ صب جميع ما فى الإناء .

والمقصود من ذلك الكناية عن قوة الصبر لأن إفراغ الإناء يستلزم أنه لم يبق فيه شىء مما حواه .

ودعوا لأنفسهم بالوفاة على الإسلام إيذانا بأنهم غير راغبين فى الحياة ولا مبالين بوعيد فرعون ، وأن همتهم لا ترجو إلا النجاة فى الآخرة والفوز بما عند الله .

وقد انخذل بذلك فرعون وذهب وعيده باطلا .

ولعله لم يحقق ما توعدهم به لأن الله أكرمهم فنجاهم من خزى الدنيا كما نجاهم من عذاب الآخرة .

والقرآن لم يتعرض لا فى سورة الأعراف ولا فى سورة الشعراء ، ولا فى سورة طه للإخبار عن وقوع ما توعدهم به فرعون ، لأن غرض القصص القرآنى هو الاعتبار بمحل العبرة وهو تأييد الله موسى وهداية السحرة وتصلبهم فى إيمانهم بعد تعرضهم للوعيد بنفوس مطمئنة .

وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث كما قال فى سورة النازعات « إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » (٢٦) النازعات .

والظاهر أن فرعون لما رأى قلة مبالاتهم بوعيده فلم يرد جوابا .

وذكرهم الإسلام فى دعائهم يدل على أن الله ألهمهم حقيقته التى كان عليها النبيون والصديقون من عهد إبراهيم عليه السلام .

## المحاورة بين فرعون وملئه

جرت محاورة بين ملأ فرعون وبين فرعون فى وقت غير وقت المحاورة التى جرت بين فرعون والسحرة ، فإنهم لما رأوا قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون ، ورأوا نهوض حجتهم على فرعون وإفحامه ، وأنه لم يجد جوابا راموا إيقاظ ذهنه ، وإسعار حميته فجاءوا بهذا الكلام المثير لغضب فرعون ، ولعلهم رأوا منه تأثرا بمعجزة موسى ، وموعظة الذين آمنوا من قومه ، وتوقعوا عدوله عن تحقيق وعيده « وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون » (١٢٧) الأعراف .

وأراد الملأ من قوم فرعون بقولهم « أتذر موسى الإغراء بإهلاك موسى وقومه والإنكار على الإبطاء بإتلافهم أى فكيف تتركه متصرفا ولا تأخذ على يده ويد قومه وهم من آمن به » وأولئك هم بنو اسرائيل كلهم ، ومن آمن من القبط .

والإفساد عند الملأ : هو إبطال أصول دياناتهم وما ينشأ عن ذلك من تفريق الجماعة ، وحث بنى إسرائيل على الحرية ومغادرة أرض الاستعباد فقالوا « ليفسدوا فى الأرض » أى مصر وهى أرض مملكة فرعون ،

وتركهم تأليه فرعون وتعظيمه وتركهم آلهته ونبذهم عبادتها ونهيهم الناس عن عبادتها .

## عبادة القبط

كان القبط مشركين يعبدون آلهة متنوعة من الكواكب والعناصر . وصوروا لها صوراً عديدة مختلفة باختلاف العصور والأقطار أشهرها ( فتاح ) وهو أعظمها عندهم وكان يعبد بمدينة ( منفيس )

ومنها ( رع ) وهو الشمس وتتفرع عنه آلهة باعتبار أوقات شعاع الشمس .

ومنها ( ازيريس ) و ( ازيس ) و ( هوروس ( وهذا عندهم ثالوث مجموع من أب وأم وابن .

ومنها ( توت ) وهو القمر وكان عندهم رب الحكمة .

ومنها ( آمون رع ) فهذه الأصنام المشهورة عندهم وهى أصل إضلال عقولهم . وكانت لهم أصنام فرعية صغرى عديدة مثل العجل ( ايبيس ) ومثل الجعران وهو الجعل وكان أعظم هذه الأصنام هو الذى ينتسب فرعون إلى بنوته وخدمته ، وكان فرعون معدوداً ابن الآلهة ، وقد حلت فيه الإلهية على نحو عقيدة الحلول ، ففرعون هو المنفذ للدين وكان يعد إله مصر .

وكانت طاعته طاعة للآلهة كما حكى الله عنه فقال « أنا ربكم الأعلى » ( ٢٤ ) النازعات .

« وقال فرعون ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين » ٣ القصص .

أراد فرعون بخطابه مع ملئه أن يثبتهم على عقيدة إلهيته فقال «ماعلمت لكم من إله غيرى» .

إبطالا لقول موسى المحكى فى سورة الشعراء «قال ربكم ورب آبائكم الأولين» وقوله هناك «رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم تعقلون» .

فأظهر لهم فرعون أن دعوة موسى لم ترج عنده وأنه لم يصدق بها فقال «ماعلمت لكم من إله غيرى يريد أنه أحاط علمه بكل شىء حتى لو ثمة إله غيره لعلمه» .

والمقصود بنفى وجود إله غيره نفى وجود الإله الذى أثبته موسى وهو خالق الجميع ، وأما آلهتهم التى يزعمونها فإنها مما تقتضيه إلهية فرعون لأنه عندهم هو مظهر الآلهة المزعومة عندهم لأنه فى اعتقادهم ابن الآلهة وخلاصة سرهم ، وكل الصيد فى جوف الفرا .

وحيث قال موسى إن الإله الحق هو رب السموات فقد حسب فرعون أن مملكة هذا الرب السماء تصورا مختلا ففرع على نفى إله غيره وعلى توهم أن الرب المزعوم مقره السماء أن أمر هامان وزيره أن يبنى له صرحاً يبلغ به عنان السماء ليرى الإله الذى زعمه موسى حتى إذا لم يجده رجع إلى قومه فأثبت لهم عدم إله فى السماء إثبات معاينة . أراد أن يظهر لقومه فى مظهر المتطلب للحق المستقصى للعوالم حتى إذا أخبر قومه بعد ذلك بأن نتيجة بحثه أسفرت عن كذب موسى ازدادوا ثقة ببطلان قول موسى .

وفى هذا الضغث من الجدل السفسطائى مبلغ من الدلالة على سوء انتظام تفكيره وتفكير ملئه . أو مبلغ تحيله وضعف آراء قومه .

وأراد بقوله « فأوقد لي ياهامان على الطين » أن يأمر هامان العملة أن يطبخوا الطين ليكون آجرا ويبنوا به ، فكنى عن البناء بمقدماته وهى إيقاد الأفران لتجفيف الطين المتخذ آجراً .

والآجر كانوا يبنون به بيوتهم فكانوا يجعلون قوالب من طين يتصلب إذا طبخ وكانوا يخلطونه بالتبن ليتماسك قبل إدخاله التنور .

وابتدأ بأمره بأول أشغال البناء للدلالة على العناية بالشروع من أول أوقات الأمر لأن ابتداء البناء يتأخر إلى مابعد إحضار مواده فلذلك أمره بالأخذ فى إحضار تلك المواد أى إشعال التنانير لطبخ الآجر . وعبر عن الآجر بالطين لأنه قوام صنع الآجر وهو طين معروف . وكأنه لم يأمره ببناء من حجر وكلس قصداً للتعجيل بإقامة هذا الصرح المرتفع إذ ليس مطلوبا طول بقائه بإحكام بنائه علي مر العصور بل المراد سرعة الوصول إلى ارتفاعه كى يشهده الناس ويحصل اليأس ثم ينقض من الأساس .

وعدل عن التعبير بالآجر إلى الطين لأنه أخف وأفصح ، وكان هامان وزير فرعون . كما كانت أوامر الملوك فى العصور الماضية تصدر بواسطة الوزير ، فكان الوزير هو المنفذ لأوامر الملك بواسطة أعوانه من كتاب وأمراء ووكلاء وغيرهم . كل فيما يليق به

ورجا أن يصل بهذا الصرح إلى السماء حيث مقر إله موسى ، وهذا من فساد تفكيره إذ حسب أن السماء يوصل إليها بمثل هذا الصرح ماطال بناؤه وأن الله مستقر فى مكان من السماء

وكانت محاولته الوصول إلى السماء لزيادة تحقيق ظنه أو لأنه أراد أن يقنع قومه بذلك .

ولعله أراد بهذا تمويه الأمر على قومه ليلقى فى اعتقادهم أن موسى ادعى أن الله فى مكان معين يبلغ إليه ارتفاع صرحه، ثم يجعل عدم العثور على الإله فى ذلك الارتفاع دليلا على عدم وجود الإله الذى ادعاه موسى ، وكانت عقائد أهل الضلالة قائمة على التخيل الفاسد ، وكانت قائمة على تمويه الدجالين من زعمائهم .

ولم يذكر القرآن أن هذا الصرح بنى ، وليس هو أحد الأهرام ، لأن الأهرام بنيت من حجارة لا من آجر ولأنها جعلت مدافن للذين بنوها من الفراعنة ،

واختلف المفسرون هل وقع بناء هذا الصرح وتم أو لم يقع . فحكى بعضهم أنه تم وصعد فرعون إلى أعلاه ونزل وزعم أنه قتل رب موسى

وحكى بعضهم أن الصرح قد سقط قبل إتمام بنائه فأهلك خلقا كثيرا من عملة البناء والجند .

وحكى بعضهم أنه لم يشرع فى بنائه .

والظاهر أن يكون فرعون أمر ببناء صرح لا لقصد الارتقاء إلى السموات بل ليخلو بنفسه رياضة ليستمد الوحى من الرب الذى ادعى موسى أنه أوحى إليه إذ قال « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » فإن الارتياض فى مكان منعزل من الناس كان من شعار الاستيحاء الكهنوتى عندهم .

وكان فرعون يحسب نفسه أهلا لذلك لزعمه أنه ابن الآلهة وحامى الكهنة والهياكل « وإنما كان يشغله تدبير أمر المملكة فكان يكل شؤون الديانة إلى الكهنة فى معابدهم ، فأراد فى هذه الأزمة الجدلية أن يتصدى لذلك بنفسه ليكون قوله الفصل فى نفى وجود إله آخر تضليلا لدهماء أمته لأنه أراد التوطئة للإخبار بنفى إله آخر غير آلهتهم فأراد أن يتولى وسائل النفى بنفسه .

وقال الله تعالى فى سورة المؤمن «وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا » ( ٣٦—٣٧ ) .

وأراد فرعون بذلك أن يثبت لهم ثباته حتى لا يظن هامان وقومه أن دعوة موسى أوهنت منه يقينه بدينه وآلهته ، وأنه يروم أن يبحث بحث متأمل ناظر فى أدلة المعرفة لحقق لهم أنه ما أراد بذلك إلا نفى ماأدعاه موسى بدليل الحس .

والمعنى إنى أفعل ذلك ليظهر كذب موسى .

وتوعد فرعون موسى وقومه بالاستئصال بقتل الأبناء ، والمراد الرجال بقرينة مقابلته بالنساء . وإخبار فرعون ملأه باستحياء النساء تتميم لا أثر له فى إجابة مقترح ملئه لأنهم اقترحوا عليه أن لا يبقى موسى وقومه ، فأجابهم بما عزم عليه فى هذا الشأن .

والغرض من استبقاء النساء أن يتخذوهن سرارى وخدما .

وقد اعتذر فرعون للملأ من قومه عن إبطائه باستئصال موسى وقومه فقال « وإنا فوقهم قاهرون » الأعراف ( ١٢٧ ) .

أى هم لا يقدرون أن يفسدوا فى البلاد ولا أن يخرجوا عن طاعتى، فالقاهر : هو الغالب بإذلال .

جواب موسى لقومه وعدم اكترائه بوعيد فرعون .

عندما أجاب قوم موسى بقولهم « إنا إلى ربنا منقلبون » .
فقد أجابوا عن وعيد فرعون . فكان موسى معدوداً فى المحاورة .

فأجاب قومه وخاطبهم بقوله : « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عبـــاده والعاقبة للمتقين » الأعراف (١٣٨) .

وهذا الكلام منـــه جواب لفرعون ، لأنه فى قوة التصريح بقلة الاكتراث بالوعيد . ويدفع ذلك بالتوكل على الله .

والتوكل : هو جماع قوله « استعينوا بالله واصبروا » وقد عبر عن ذلك بالتوكل فى قوله : « وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » يونس (٨٤) .

وخاطب موسى قومه بذلك تطمينا لقلوبهم ، وتعليما لهم بنصر الله إيام لأنه علم ذلك بوحى من الله إليه وأعلمهم بالاستعانة بالله والصبر وأن يفعلوا ذلك لأن حكم الظلم لا يدوم .

وأراد الله أن يصرف اليأس عن نفوسهم الناشىء عن مشاهدة قوة فرعون وسلطانه ، بأن الله الذى خوله ذلك السلطان قادر على نزعه منه، لأن ملك الأرض كلها لله «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » سورة آل عمران (٢٦) .

وأراد بالأرض فى قوله : « إن الأرض لله يورثها من يشاء » هى الأرض كلها، وليست أرضا معينة .

وهذا إشارة إلى أنهم خارجون من مصر وسيملكون أرضاً أخرى.

وقد علم من قوله : « والعاقبة للمتقين » أن من يشاء الله أن يورثهم الأرض هم المتقون إذا كان فى الناس متقون وغيرهم . وأن تمليك الأرض لغيرهم إما عارض وإما لاستواء أهل الأرض فى عدم التقوى .

## جواب قوم موسى لإجباره على الدعاء لهم

كان جواب قوم موسى إياه لاستثارة موسى ليدعو ربه أن يفرج كربهم «قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا» (الأعراف ١٢٩) .

أرادوا بالإيذاء ما لحقهم من الاستعباد وتكليفهم الأعمال الشاقة عليهم فى خدمة فرعون وما توعدهم به فرعون بعد بعثة موسى من القطع والصلب وكأنهم أرادوا التعريض بنفاذ صبرهم وأن الأذى الذى مسهم بعد بعثة موسى لم يكن بداية الأذى .

بل جاء بعد طول مدة فى الأذى ، فلذلك جمعوا فى كلامهم ما لحقهم قبل بعثة موسى .

وذكر المجىء بعد الإتيان ليس لاختلاف المعنى ولكنه التفنن وكراهية إعادة اللفظ ، فالإتيان والمجىء مدلولهما واحد هو بعثة موسى بالرسالة .

ردموسى عليهم

وأجابهم موسى بتقريب أن يكونوا هم الذين يرثون ملك الأرض والذين تكون لهم العاقبة .

وجاء بفعل الرجاء بقوله « عسى » دون الجزم تأدبا مع الله تعالى : وإقصاء للاتكال على أعمالهم ليزدادوا من التقوى والتعرض إلى رضا الله ونصره بقوله « عسى ربكم أن يهلك عدوكم » وقد نظر إلى قوله « إن الأرض لله » .

وقوله « ويستخلفكم فى الأرض » نظر إلى قوله «والعاقبة للمتقين» .

والمراد بالاستخلاف هو استخلافهم عن الله فى ملك الأرض ، فالاستخلاف أن جعلهم أحرارا غالبين ومؤسسين ملكا فى الأرض المقدسة .

وحذرهم بقوله « فينظر كيف تعملون » من أن يعملوا ما لا يرضى الله تعالى ، وحرضهم على الاستكثار من الطاعة ليستحقوا وصف المتقين تذكيرا لهم بأنه عليم بما يعملونه .

والمقصود عملهم مع الناس فى سياسة ما استخلفوا فيه ، وهو كله من الأمور التى تشاهد إذ لا دخل للنيات والضمائر فى السياسة وتدبير الممالك إلا بمقدار ما تدفع إليه النيات الصالحة من الأعمال المناسبة لها ، فإذا صدرت الأعمال صالحة كما يرضى الله وما أوصى به حصل المقصود ولا يضرها ما تكنه نفس العامل .

# الفصل الثالث

## المصائب التي أصابت فرعون

### ووصف تكوين بني إسرائيل

لقد ذكر القرآن الكريم المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومه، وجعلها آيات لموسى ليلجيء فرعون إلى الإذن لبني إسرائيل بالخروج .

وقد وقعت تلك الآيات بعد المعجزة الكبرى التي أظهرها الله لموسى في مجمع السحرة . ويظهر أن فرعون أغض عن تحقيق وعيده إبقاء على بني إسرائيل لأنهم كانوا يقومون بالأشغال العظيمة لفرعون .

قال تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون » الأعراف ( ١٣٠ — ١٣١ ) .

بقي موسى مدة في قومه يطلب من فرعون إطلاق بني إسرائيل ، ولكن فرعون يعد ويخلف ، ولكن المدة لم تطل فليس قوله « بالسنين » دليلا على أنها طالت أعواما . لأن السنين هنا جمع سنة بمعنى الجدب لا بمعنى الزمن المقدر من الدهر ، فالسنة في كلام العرب إذا عرفت باللام يراد بها سنة الجدب والقحط ، ومن ثم اشتقوا منها : أسنت القوم إذا أصابهم الجدب والقحط فالسنون مراد بها هنا القحط الذي أصابهم في جميع الأرضين والبلدان .

والمعنى : ولقد أخذناهم بالقحوط العامة فى كل أرض فأهلكناهم بالمصائب والشدائد .

ونقص الثمرات : قلة إنتاجها قلة غير معتادة لهم .

فالسنون تنتاب المزارع والحقول ، ونقص الثمـــرات ينتاب الجنات .

## تنبيه الأمة فيما يحيط بها

نبهوا بالمصائب ولعلهم يذكرون ، أى مرجوا تذكرهم لأن المصائب والأضرار المقارنة لتذكير موسى إياهم بربهم وتسريح عبيده من شأنها أن يكون أصحابها مرجوا منهم أن يتذكروا بأن ذلك عقاب على إعراضهم وعلى عدم تذكرهم ، لأن الله نصب العلامات للاهتداء إلى الخفيات ، فشأن أهل الألباب أن يتذكروا فإذا لم يتذكروا فقد خيبوا ظن من يظن بهم ذلك مثل موسى وهارون ، أما الله تعالى فهو يعلم أنهم لا يتذكرون ولكنه أراد الإملاء لهم ، وقطع أعذارهم ، وفى هذا تنبيه للأمة للنظر فيما يحيط بها من دلائل غضب الله ، فإن سلب النعمة المنعم عليهم تنبيه لهم على استحقاقهم إعراض الله عنهم .

## وصف حالهم عند الرخاء والشدة

كان حالهم إذا جاءتهم الحسنة لم يتذكروا ولكنهم زادوا كفراً وغروراً ، وعبر فى جانب الحسنة بالمجىء لأن حصولها مرغوب ، فهى تترقب كما يترقب الجائى ، وعبر فى جانب السيئة بالإصابة لأنها تحصل فجأة من غير رغبة ولا ترقب ،

وجىء فى جانب الحسنة بإذا المفيدة لليقين ، ولذلك جىء بالفعل

الماضى معها لأنه أقرب إلى اليقين فى الحصول من المستقبل ، فالحسنات أى النعم كثيرة الحصول تتتابعهم متوالية من صحة وخصب ورخاء ورفاهية عيش .

وجيء فى جانب السيئة بـ «إن» المفيدة لندرة وقوع السيئات أى المكروهات عليهم بالنسبة إلى النعم ، لأن المكروهات شيء غير مألوف حلوله بهم ، وفى ذلك تعريض بأن نعم الله كانت متكاثرة لديهم وأنهم كانوا معرضين عن الشكر وتعريض بأن إصابتهم بالسيئات نادرة الوقوع عليهم ولذلك نكرت ، وهم يعدون السيئات من جراء موسى ومن آمن به معه ، فهم فى كلتا الحالتين بين كافرين بالنعمة ، وظالمين لموسى ومن معه قال تعالى «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه» .

ومن عجائبهم أنهم قالوا : إن الحالة الحسنة حق لنا لأنهم بغرورهم يحسبون أنهم أحرياء بالنعم «قالوا لنا هذه» ولا يرون تلك الحسنة فضلا من الله ونعمة .

أصل التطير والمراد به وسبب المصائب عليهم

التطير : هو تكلف معرفة حظ المرء بدلالة حركات الطير .

والأصل فيه : كان العرب إذا خرجوا فى سفر لحاجة نظروا إلى ما يلاقيهم أول سيرهم من طائر فكانوا يزعمون أن فى مروره علامات يمن وعلامات شؤم ، فالذى فى طيرانه علامة يمن فى اصطلاحهم يسمونه السانح ، وهو الذى ينهض فيطير من جهة اليمين للسائر ، والذى علامته الشؤم هو البارح ، وهو الذى يمر على اليسار ، وإذا وجد السائر طيرا جاثما

أثاره لينظر أى جهة يطير ، وتسمى تلك الإثارة زجرا . فمن الطير ميمون ومنه مشئوم والعرب يدعون للمسافر بقولهم (على الطائر الميمون ثم غلب استعمال لفظ التطير فى معنى التشاؤم خاصة ، يقال الطيرة أيضا كما فى الحديث «لاطيرة وإنما الطيرة على من تطير» أى الشؤم يقع على من يتشاءم . جعل الله ذلك عقوبة له فى الدنيا لسوء ظنه بالله ، وإنما غلب لفظ الطيرة على التشاؤم لأن للأثر الحاصل من دلالة الطيران على الشؤم دلالة أشد على النفس لأن توقع الضر أدخل فى النفوس من رجاء النفع .

والمراد به أنهم يتشاءمون بموسى ومن معه فاستعمل التطير فى التشاؤم بدون دلالة من للطير . لأن قوم فرعون لم يكونوا ممن يزجر الطير فيما علمنا من أحوال تاريخهم ، ولكنهم زعموا أن دعوة موسى فيهم كانت سبب مصائب حلت بهم فعبر عن ذلك بالتطير على طريقة التعبير العربى .

والتشاؤم : هو عد الشىء مشؤوما أى يكون وجوده سببا فى وجود ما يحزن ويضر فمعنى «يطيروا بموسى» يحسبون حلول ذلك بهم مسببا عن وجود موسى ومن آمن به ، وذلك أن آل فرعون كانوا متعلقين بضلال دينهم ، وكانوا يحسبون أنهم إذا حافظوا على اتباعه كانوا فى سعادة عيش ، فحسبوا وجود من يخالف دينهم بينهم سببا فى حلول المصائب والإضرار بهم فتشاءموا بهم .

ولم يعلموا أن سبب المصائب هو كفرهم وإعراضهم لأن حلول المصائب بهم يلزم أن يكون مسببا عن أسباب فيهم لا فى غيرهم : وهذا من العماية فى الضلالة فيبقون منصرفين عن معرفة الاسباب الحقيقية .

ولذلك كان التطير من شعار أهل الشرك ، لأنه مبنى على نسبة المسببات

لغير أسبابها ، وذلك من مخترعات الذين وضعوا لهم ديانة الشرك وأوهامها وفى الحديث « الطيرة شرك »(١) .

وتأويله أنها من بقايا دين الشرك .

إن قوم فرعون يعدون موجب شؤم موسى هو ما جاء به من الدين لأنه لا يرضى آلهتهم ودينهم ولولا دينه لم يكن مشؤوما كما قال ثمود ومن معه « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا » سورة هود (٦٢)

السبب الحقيق لحلول المصائب بهم

أشار الله إلى السبب الحق لحلول المصائب بهم بقوله « ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون » الأعراف (١٣)

إن الطائر الذى يثار ليتيمن به أو يتشاءم استعير هنا للسبب الحق لحلول المصائب بهم حيث شبه الحق وهو ما استحقوا به العذاب من غضب الله بالطائر ، ثم بين أن سبب شؤمهم مقدر من الله لقوله « عند الله » كما وقع فى الحديث « ولا طير إلا طيرك » فعبر عما قدره الله للناس « بطير » على طريق المشاكلة .

وسوء حالهم عقاب من الله لا من عند موسى ومن معه فلا ينافى أن المؤمنين يعلمون أن سبب حلول المصائب بأهل الشرك المعاندين للرسل هو شركهم وتكذيبهم الرسل ، يعلمون ذلك بإخبار الرسل ، أو بصدق الفراسة ، وحسن الاستدلال كما قال أبو سفيان ليلة الفتح لما هداه الله « لقد علمت أن لو كان معه إله آخر لقد أغنى عنى شيئا » .

---

(١) رواه أصحاب السنن

فأما المشركون وأضرابهم من أهل العقائد الضالة فيسندون صدور الضر والنفع إلى أشياء تقارن حصول ضر ونفع فيتوهمون تلك المقارنة تسببا، ولذلك تراهم يتطلبون معرفة حصول الخير والشر من غير أسبابها ومن ذلك الاستقسام بالازلام .

وهذا من شأنه أن لا يجهله العقلاء. فاستدرك بأن أكثر هؤلاء لا يعلمون .

وإنما نفى العلم عن أكثرهم تنبيها على أن قليلا منهم يعلمون خلاف ذلك ولكنهم يشايعون مقالة الأكثرين .

إصابتهم بهذه الآيات على عتوهم وعنادهم لموسى

لقد قابلوا المصائب التى أصابهم الله بها ليذكروا بازدياد الغرور فأيسوا من التذكر بها ، وعاندوا موسى حين تحداهم بها « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا به فما نحن لك بمؤمنين»أى مهما تأتنا به من أعمال سحرك العجيبة فما نحن لك بمؤمنين . فلا تتعب نفسك فى السحر وسموا ما جاء به موسى آية باعتبار الغرض الذى تحداهم به موسى حين الإتيان بها ، لأن موسى يأتيهم بها استدلالا على صدق رسالته ، وهم لا يعدونها آية ولكنهم جاروا موسى فى التسمية بقرينة قولهم « لتسحرنا بها » وفى ذلك استهزاء كما حكى الله عن مشركى أهل مكة وقالوا « يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » الحجر (٦) بقرينة قولهم إنك لمجنون .

وقطعوا بانتفاء إيمانهم بموسى لأنهم جاءوا فى كلامهم حيث قالوا « فما نحن لك بمؤمنين »

وفيه من الدلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامه .

وكانت إصابتهم بهذه المصائب على عتوهم وعنادهم بإنزال الطوفان :

وهو السيح الغالب من الماء الذى يغمر جهات كثيرة ويطغى على المنازل والمزارع قيل ، هو مشتق من الطواف ، لأن الماء يطــوف بالمنازل وتتكرر جريته حولها . ولم يدخل الطوفان الأرض التى كان بها بنو اسرائيل وهى أرض جاسان .

قال تعالى «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين» الأعراف (١٣٣) .

الجراد : الحشرة الطائرة من فصيلة الصراصير والخنافس . له أجنحة ست ذات ألوان صفر وحمر تنتشر عند طيرانه ، يكون جنودا كثيرة وهو مهلك للزرع والشجر يأكل الورق والسنبل ، فهو من أسباب القحط أصاب أرض قوم فرعون ولم يصب أرض بنى إسرائيل .

والقمل : اسم نوع من القراد يسمى الحنان وهو يمتص دم الإنسان ( وهو غير القمل الذى هو من الحشرات الدقيقة التى تكون فى شعر الرأس وفى جلد الجسد ، يتكون من تعفن الجلد لوسخه ومن تعفن جلد الرأس كثيرا ) .

وقد أصاب جند فرعون كثير من الحنان وعسر الاحتراز عنه . ولعله أصاب مواشيهم أيضا .

والضفادع : جمع ضفدع : وهو حيــوان يمشى على أرجل أربع ويسحب بطنه ويسبح فى المياه ويكون فى الغدران ومناقع المياه ، صوته مثل القراقر يسمى نقيقا ، أصاب الجند وكان يقع فى طعامهم ، وتسقط فى القدور ، ويقع فى العيون والأسقية وفى البيوت ، فيفسد ما يقع فيه وتطؤه أرجل الناس ، فتتقذر به البيوت ، وقد سلمت منه بلاد (جاسان) منزل بنى اسرائيل .

والدم : قيل : أصابهم رعاف متفش فيهم ، وقيل : صارت مياه القبط كالدم فى اللون .

ولعل ذلك من حدوث دود أحمر فى الماء فشبه الماء بالدم ، وسلمت منه ( جاسان ) قرية بنى اسرائيل وسمى الله هذه آيات ، لأنها دلائل على غضب الله عليهم لتضافرها عليهم حين صمموا على الكفر والعناد .

وكانت هذه الآيات مفصولا بعضها عن بعض فى الزمان فلم تحدث كلها فى وقت واحد بل حدث بعضها بعد بعض ، وحدث تراخى فى المدة بين الواحدة والأخرى ، وجاء على هذا أن العذاب كأن أشد وأطول زمنا كما دل عليه قول تعالى « وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها » الزخرف (٤٨)

قيل : كان بين الآية منها والأخرى مدة شهر أو مدة ثمانية أيام وأكثر .

فتبين من إنزال الآيات وأخذهم بالسنين غرورهم بأن ذلك من شؤم موسى ومن معه فعلم أن من طبع تفكيرهم فساد الوضع ، وهو انتزاع المدلولات من أضداد أدلتها ، وذلك دليل على انغماسهم فى الضلالة والخذلان وبعدهم عن السعادة والتوفيق فلا يزالون مورطين فى وحل الشقاوة حيث قال « فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » وعدوا أنفسهم كبراء وتعاظموا عن التصديق بموسى وإبطال دينهم إذا أعرضوا عن التصديق بتلك الآيات المفصلات واستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات بوثبت وصف الإجرام فيهم ، وتمكن منهم ، ورسخ فيهم من قبل حدوث الاستكبار ، وفى ذلك تنبيه على أن وصف الإجرام الراسخ فيهم هو علة للاستكبار الصادر منهم .

إصابتهم بالطاعون ألجأتهم إلى الاعتراف بآيات موسى

إن الرجز من أسماء الطاعون أى أصابهم طاعون ألجأهم إلى التضرع بموسى عليه السلام حيث قال الله « فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » البقرة آية (٥٩)

وقال : « ولما وقع عليهم الرجز » الأعراف (١٣٤) وكأنه قال وأرسلنا عليهم الرجز ولما وقع عليهم الخ .

وإنما لم يذكر الرجز فى عداد الآيات التى سبق الحديث عنها تخصيصا له بالذكر لأن له نبأ عجيبا فإنه كان ملجأهم إلى الاعتراف بآيات موسى ووجود ربه تعالى .

وهذا الطاعون مات بسببه سبعون ألفا فى ذلك اليوم من القبط خاصة ، ولم يصب بنى اسرائيل منه شىء

تجويز تعدد الآلهة عند الفراعنة

عندما وقع عليهم الرجز وهو العذاب « قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل الاعراف (١٣٤)

وليس قولهم هذا إيمان بالله ورسالة موسى ولكنهم كانوا مشركين وكانوا يجوزون تعدد الآلهة واختصاص بعض الأمم وبعض الأقطار بآلهة لهم فهم قد خامرهم من كثرة ما رأوا من آيات موسى أن يكون لموسى رب له تصرف وقدرة وأنه أصابهم بالمصائب لانهم أضروا عبيده فسألوا موسى أن يكف عنهم ربه ، ويكون جزاؤه الإذن لبنى اسرائيل بالخروج من مصر ليعبدوا ربهم .

فبدا لفرعون أن وجه الفصل مع بنى اسرائيل أن يعبدوا ربهم فى أرض غير مصر التى لها أرباب أخر ، ولذلك قال « ربك » ولم يقل ربنا وأدع لنا ربك أن يكشف عنا هذا العذاب .

وقد غم وأبهم حال موسى على فرعون فلم يدر أهو رسول من إله غير آلهة القبط فلذلك قال له « بما عهد عندك » أي بما عرفك وأودع عندك من الأسرار ، وهذه عبارة متحير فى الأمر ملتبسة عليه الأدلة .

وهذا يقتضى أنهم جوزوا أن يكون موسى مبعوثاً من رب له : بناء على تجويزهم تعدد الآلهة .

ووعدهم بالإيمان لموسى وعد بالإيمان بأنه صادق فى أنه مرسل من رب بنى إسرائيل ليخرجهم من أرض مصر وليس وعداً باتباع الدين الذى جاء به موسى ، لأنهم مكذبون به فى ذلك ، وزاعمون أنه ســـاحر يريد إخراج الناس من أرضهم ، ولذلك جاء فعل الإيمان متعلقاً بموسى لا باسم الله ، وقد جاء هذا الوعد على حسب ظنهم أن الرب الذى يدعو إليه موسى هو رب خاص به وبقومه كما دل عليه قوله : « ادع لنا ربك بما عهد عندك » وقد وضحوا مرادهم بقولهم « ولنرسلن معك بنى إسرائيل » .

دعاء موسى برفع الطاعون وفرعون ينكث وعده

دل قوله « فلما كشفنا عنهم الرجز » على أن موسى دعـــا الله برفع الطاعون فارتفع .

وأزال الله عنهم الرجز الذى سببه الطاعون إلى أجل هم بالغوه حيث قال « فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » ، الأعراف (١٣٥) .

وهذا الأجل : هو الأجل الذى قدره الله لهلاكهم .

ولكنهم بادروا بالنكث ولم يؤخروه : وهذا وصف لهم بإضمار

الكفر بموسى ، وإضمار النكث لليمين الذى أقسموه بقولهم « لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك » .

وصف تكوين أمة بنى اسرائيل فقد طلبوا اتخاذ العجل

لما بادروا بالنكث وأضمروا الكفر بموسى استرسل الكلام إلى وصف تكوين أمة بنى إسرائيل وما يحق أن يعتبر به من الأحوال العارضة لهم فى خلال ذلك بما فيه طمأنينة نفوس المؤمنين الصالحين فى صالح أعمالهم ، وتحذيرهم مما يرمى بهم إلى غضب الله فيما يحقرون من المخالفات ، لما فى ذلك كله من التشابه فى تدبير الله تعالى أمور عبيده ، وسنته فى تأييد رسله وأتباعهم ، وإيقاظ نفوس الأمة إلى مراقبة خواطرهم ومحاسبة نفوسهم فى شكر النعمة ، ودحض الكفران ، حيث قال عنهم « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » الأعراف(١٣٨) .

وعند هؤلاء القوم مركب نقص من كثرة الهوان والذل فلما رأوا آثار الوثنية طلبوا إلهاً يعبدونه أمام أعينهم فكانوا يعبدون فى مصر العجل وهو ابن البقرة ، وفى الهند الآن يعبدون البقر ، فيدهنون بروث البقر وجوههم تبركا ، ونجد فى الريف عادة إلى الآن بأن يضع الإنسان الدقيق على جبهة البقرة عند دخولها البيت أول شرائها .

وكان فى سقارة بمصر يدفنون العجول بها ونسوا بذلك الوحدانية وتخلوا عن التوحيد فلما وصلوا إلى سيناء قالوا : كيف نعبد إلهاً لا نراه؟ نريد إلهاً مادياً نغسله وننظفه يومياً ونعبده ، ووبخهم موسى فقالوا لا نريد الصنم ونتوجه إلى الله .

ومعنى قوله : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر » قدرنا لهم جوازه والمرور به ويسرناه لهم ، والبحر هو بحر القلزم — المعروف الآن بالبحر

الأحمر فقد قطعوا البحر الأحمر وخرجوا على شاطئه الشرقى وألفوا فى طريقهم الكنعانيين ويقال لهم عند العرب العمالقة ، ويعرفون عند متأخرى المؤرخين بالفينقيين ، وقد كان البقر يعبد عند الكنعانيين أى الفينقيين باسم بعل قال تعالى : « ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » البقرة (٥١)

وكانوا يعكفون ويلازمون أصنامهم بنية العبادة لها ، وهى أصنام لهم خاصة بهم، وهذا زيادة تشنيع بهم وتنبيه على جهلهم وغوايتهم فى أنهم يعبدون ما هو ملك لهم فيجعلون مملوكهم إلا هم .

وندائهم موسى بقولهم « قالوا ياموسى » وهو معهم مستعمل فى طلب الإصغاء لما يقولونه إظهاراً لرغبتهم فيما سيطلبون ، وسموا الصنم إلها لجهلهم فهم يحسبون أن اتخاذ الصنم يجدى صاحبه كما لو كان إلهه معه ، وهذا يدل على أن بنى إسرائيل قد انخلعوا فى مدة إقامتهم بمصر عن عقيدة التوحيد وحنيفية إبراهيم ويعقوب التى وصى بهـــا فى قوله « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون» لأنهم لما كانوا فى حال ذل واستعباد ذهب علمهم وتاريخ مجدهم واندمجوا فى ديانة الغالبين لهم فلم تبق لهم ميزة تميزهم إلا أنهم خدمة وعبيد.

وأرادوا بقولهم « كالهم آلهة » حض موسى على إجابة سؤالهم وابتهاجاً بما رأوا من حال القوم الذين حلوا بين ظهرانيهم، وكفى بالأمة خسة عقول أن تعد القبيح حسناً وأن تتخذ المظاهر المزينة قدوة لها وأن تنخلع عن كمالها فى اتباع نقائص غيرها .

جواب موسى عليهم

وكان جواب موسى عليهم بعنف وغلظة بقوله « إنكم قوم تجهلون » لأن ذلك هو المناسب لحالهم ، والمراد جهلهم بمفاسد عبادة الأصنام ، وكان وصف موسى إياهم بالجهالة مؤكداً من كون الجهالة صفة ثابتة فيهم

وراسخة من نفوسهم، ولولا ذلك لكان لهم فى بادىء النظر زاجر عن مثل هذا السؤال .

وفى التعبير بلفظ « قوم » وجعل ما هو مقصود بالإخبار وصفاً لقوم تنبيه على أن وصفهم بالجهالة كالمتحقق المعلوم الداخل فى تقويم قوميتهم.

وفى الحكم بالجهالة على القوم كلهم تأكيد للتعجب من حال جهالتهم وعمومها فيهم بحيث لا يوجد فيهم من يشذ عن هذا الوصف مع كثرتهم ، ولأجل هذه الغرابة أكد الحكم بـ « إن » ، لأن شـأنه أن يتردد فيه السامع .

وبين لهم جهلهم بقوله : « إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون » فجاءت الإشارة لتمييزهم بتلك الحالة التى هم متلبسون بها أكمل تمييز ، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما يرد بعد ذلك من الأوصاف ، وهى كونهم متبراً أمرهم وباطلا عملهم ، فهم المعرضون للتبار وأنه لا يعدوهم ألبتة وأنه لهم ضربة لازب ، والمتبر هو المدمر ، والتبار هو الهلاك لما هم فيه من عبادة الأصنام وما تقتضيه من الضلالات والسيئات ، فلا جرم أن قال « وباطل ما كانوا يعملون » لأن المقام مقـام التوبيخ والمبالغة فى الإنكار ،

التذكير بنعمة الله عليهم

وفى تكملة جواب موسى عليهم « قال أغير الله أبغيكم إلها » فانتقل من غرض التوبيخ على سؤالهم إلى غرض التذكير بنعمة الله عليهم وأن شكر النعمة يقتضى زجرهم عن محاولة عبادة غير المنعم ، وهو من الإرتقاء فى الاستدلال ، أى لو لم تكن تلك الآلهة باطلا لكان فى اشتغالكم بعبادتها والإعراض عن الإله الذى أنعم عليكم كفران للنعمة ، وتداء على الحماقة ، وتنزه عن أن يشاركهم فى حماقتهم ، فقد أنكر وتعجب من طلبهم

أن يجعل لهم إلها غير الله، فمحل الإنكار هو اتخاذ غير الله إلها، ثم ذكرهم «وهو فضلكم على العالمين» وذلك أن تفضيلهم على العالمين كان معلوماً عندهم فهو فضلكم ولم تفضلكم الأصنام ، فكان الإنكار عليهم تحميقاً لهم فى أنهم مغمورون فى نعمة الله ويطلبون عبادة مالا ينعم .

والمراد بالعالمين : أمم عصرهم وتفضيلهم عليهم .

١ — بأنهم ذرية رسول وأنبياء .

٢ — وبأن منهم رسلا وأنبياء .

٣ — وبأن الله هداهم إلى التوحيد والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبطوا فيه .

٤ — وبأنه جعلهم أحرارا بعد أن كانوا عبيدا

٥ — وساقهم إلى امتلاك أرض مباركة .

٦ — وأيدهم بنصره وآياته .

٧ — وبعث فيهم رسولا ليقيم لهم الشريعة .

وهذه الفضائل لم تجتمع لأمة غيرهم يومئذ ومن جملة العالمين هؤلاء القوم الذين أتوا عليهم وذلك كناية عن إنكار طلبهم اتخاذ أصنام مثلهم ، لأن شأن الفاضل أن لا يقلد المفضول، لأن اقتباس أحوال الغير يتضمن اعترافاً بأنه أرجح رأياً وأحسن حالا فى تلك الناحية .

ومن كلام موسى قوله «وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم» الأعراف (١٤١)

«وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم» البقرة (٤٩)

والمعنى أأبتغى لكم إلهاً غير الله فى حال أنه فضلكم على العالمين وفى زمان أنجاكم فيه من آل فرعون بواسطتى فابتغاء إله غيره كفران لنعمته .

## حضور موسى لتلقى الشريعة

عاد القرآن إلى حوادث بنى إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر حيث أخبر الله موسى بأنه عند استقلالكم كأمة سأشرع لكم شرعاً وقد آن الأوان فقد ذهب فرعون وأعطيتكم النعم من غير عبادة «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» الذاريات (٥٦)

فقال موسى : وماذا أفعل؟

فقال له الله : تصوم ثلاثين يوما وتأتينى عند جبل الطور لأعطك الوصايا والشريعة ، ولا تصم وأنت عند قومك ، ولكن عليك أن تصوم وأنت فى طريق الوصول إلينا .

فصام وترك قومه ، ولما أنهى موسى الثلاثين ليلة فى صيام وأصبح على وشك أن يكلفه الله بالشريعة وهو صائم لا يفطر ، وقواه الله فلما وصل إلى المناجاة وجد رائحة فمه متغيرة ، فقال : كيف أكلم الله وفى فمى تلك الرائحة فقطع بعض البقول ومضغها ليغير الرائحة ، وفى رواية أنه جاء بالسواك وأوحى الله إلى موسى بالمباشرة فقد امتاز بها موسى حيث سمع من غير وساطة جبريل . فقال يا موسى . غيرت فمك؟ فقال : استعداداً لمناجاتك ، فقال أما علمت أن رائحة فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وحيث أنك خالفت فعليك أن تصوم عشرة أيام قال تعالى : «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة» الأعراف (١٤٢)

وقد جعل الله مدة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيرا عليه ، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقاً ورغبة فى مناجاة الله وعبادته زاده الله من هذا الفضل

عشر ليال فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة ولم يزده على أربعين ليلة ، إما لأنه قد بلغ أقصى ماتحتمله قوته البشرية فباعده الله من أن تعرض له السآمة فى عبادة ربه ، وذلك يجنب عنه المتقون بله الأنبياء ،وقد قال النبى ﷺ عليكم من الأعمال بما تطيقون فإن الله لايمل حتى تملوا ،

وإما لأن زيادة مغيبه عن قومه تفضى إلى أضرار كما قيل إنهم عبدوا العجل فى العشر الليالى الأخيرة من الأربعين ليلة .

وسميت زيادة الليالى العشر إتماما إشارة إلى أن الله تعالى أراد أن تكون مناجاة موسى أربعين ليلة ولكنه لما أمر بها ، أمره بها متفرقة .

إما لحكمة الاستئناس، وإما لتكون تلك العشرعبادةأخرى فيتكرر الثواب .

والمراد الليالى بأيامها فاقتصر على الليالى لأن المواعدة كانت لأجل الانقطاع للعبادة وتلقى المناجاة والنفس فى الليل أكثر تجردا للكمالات النفسانية ، والأحوال الملكية منها فى النهار وإذ قداعتادت النفوس بحسب أصل التكوين الاستئناس بنور الشمس والنشاط به للشغل فلا يفارقها فى النهار الاشتغال بالدنيا ولو بالتفكير وبمشاهدة الموجودات وذلك ينحط فى الليل والظلمة وتنعكس تفكرات النفس إلى داخلها ولذلك لم تزل الشريعة تحرض على قيام الليل وعلى الابتهال فيه إلى الله تعالى قال « تتجافى جنوبهم عن المضاجع . يدعون ربهم خوفا وطمعا » السجدة (١٦) وقال « وبالأسحار هم يستغفرون » الذاريات (١٨) وفى الحديث « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فى ثلث الليل الأخير فيقول هل من مستغفر فأغفر له هل من داع فأستجيب له » .

والغالب فى الكلام العربى التوقيت بالليالى ويريدون أنها بأيامها ، لأن الأشهر العربية تبتدىء بالليالى إذا هى منوطة بظهور الأهلة .

الحكمة فى زيادة العشر

إن التمام معناه النماء والتفوق فكان ميقاتاً أكمل وأفضل وهذا للإشارة إلى أن زيادة العشر كانت لحكمة عظيمة تكون مدة الثلاثين بدونها غير بالغة أقصى الكمال، وأن الله قدر المناجاة أربعين ليلة، ولكنه أبرز الأمر لموسى مفرقا وتيسيراً عليـــه ليكون إقباله على إتمام الأربعين باشتياق وقوة .

وبزيادة العشر تم الميقات أربعين ليلة ومعنى الميقات هو الوقت، أو وقت قدر فيه عمل ما وبإضافة « ميقات » إلى « ربه » للتشريف والتعريض بتجهيل بعض قومه حين تأخر مغيب موسى عنهم فى المناجاة بعد الثلاثين فزعموا أن موسى هلك فى الجبل كما رواه ابن جريج .

وصية موسى لأخيه هارون فى سياسة الأمة

وقال موسى لأخيه هارون أخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، أى قال موسى لأخيه عند العزم على الصعود إلى الجبل للمناجاة، فإنه صعد وحده ومعه غلامه يوشع بن نون « اخلفنى » أى كن خلفاً عنى وخليفة .

وقد جمع له فى وصيته ملاك السياسة بقوله « وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » .

فإن سياسة الأمة تدور حول محور الإصلاح وجعل الشىء صالحاً بأن تكون الأعمال عائدة بالخير والصلاح لفاعلها ولغيره ، فإن بالصلاح عليه وبضده على غيره لم تعتبر تلك الأعمال صلاحا ، ولا تلبث أن تؤول فساداً على من لاحت عنده صلاحا ، ثم إذا تردد فعل بين كونه خيرا من

جهة وشراً من جهة أخرى وجب اعتبار أقوى حالتيه فاعتبر بها إن تعذر العدول عنه إلى غيره مما هو أوفر صلاحا وإن استوى جهتاه ألغى إن أمكن إلغاؤه وإلا تخير ، وهذا أمر لهارون جامع لما يتعين عليه عمله من أعماله فى سياسة الأمة .

وحذره من الفساد بقوله « ولا تتبع سبيل المفسدين »

والمفسد هو من كان الفساد صفته ، فلما تعلق النهى بسلوك طريق المفسدين كان تحذيرا من كل مايسترو ح منه مآل إلى فساد، لأن المفسدين قد يعملون عملا لافساد فيه فنهى عن المشاركة فى عمل من عرف بالفساد لأن صدوره عن المعروف بالفساد كاف فى توقع إفضائه إلى فساد معنى هذا النهى سد ذريعة الفساد ، وسد ذرائع الفساد من أصول الإسلام

وكان هذا النهى جامعا للنهى عن ثلاث مراتب من مراتب الإفضاء إلى الفساد

١ — العمل المعروف بالانتساب إلى المفسد .

وعمل المفسد وإن لم يكن مما اعتاده.

٣ — وتجنب الاقتراب من المفسد ومخالطته

وقد أجرى، الله على لسان رسوله موسى أو أعلمه مايقتضى أن فى رعية هارون مفسدين ، وأنه يوشك إن سلكوا سبيل الفساد أن يسايرهم عليه لما يعلم فى نفس هارون من اللين فى سياسته والاحتياط من حدوث العصيان فى قومه كما حكى الله عنه فى قوله « إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى » الأعراف ( ١٥٠ ) وقوله « إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل » طه ( ٩٤ )

مجيء موسى للمناجاة :

ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ، الأعراف (١٤٣)

لقد إنتقل موسى من بين قومه إلى جبل سيناء المعين فيه مكان المناجاة وكلمه الله بكلام فهم موسى أن ذلك الكلام من أثر قدرة الله على وفق الإرادة ووفق العلم فيجوز أن يخلق الله الكلام فى شيء حادث سمعه موسى ، كما روى أن الله خلق الكلام فى الشجرة التى كان موسى حذوها ، وذلك أول كلام كلمه الله موسى فى أرض مدين فى جبل ( حوريب ).

ويجوز أن يخلق الله الكلام من خلال السحاب وذلك الكلام الواقع فى طور سيناء وهو المراد هنا .

والكلام بهذه الكيفية كان يسمعه موسى حين يكون بعيداً عن الناس فى المناجاة أو نحوها ، وهو أحد الأقوال الثلاثة التى يكلم الله بها أنبياءه كما فى قوله تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء ، الشورى ( ٥١ )

وهو حادث لامحالة ونسبته إلى الله أنه صادر بكيفية غير معتادة لاتكون إلا بإرادة الله أن يخالف به المعتاد تشريفا له ، وهو المعبر عنه بقوله « أو من وراء حجاب » وقد كلم الله محمدا ﷺ ليلة الإسراء ، ولعل الأحاديث القدسية كلها أو معظمها مما كلم به محمدا

وأما إرسال الله جبريل بكلام إلى أحد أنبيائه فهى كيفية أخرى وذلك بإلقاء الكلام فى نفس الملك الذى يبلغه إلى النبى ، والقرآن كله

من هذ النوع وقـــد كان الوحى إلى موسى بواسطة الملك فى أحوال كثيرة .

وسؤال موسى رؤية الله تعالى تطلع إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهى، لأنه لما كانت المواعدة تتضمن الملاقاة وكانت الملاقاة تعتمد رؤية الذات وسماع الحديث ، وحصل لموسى أحد ركنى الملاقاة وهو التكليم أطمعه ذلك فى الركن الثانى وهو المشاهدة .

وقد أطمع التكليم موسى فى حصول الرؤية ، ولا نشك فى أنه سأل رؤية تليق بذات الله تعالى وهى مثل الرؤية الموعود بها فى الآخرة،فكان موسى يحسب أن مثلها ممكن فى الدنيا حتى أعلمه الله بأن ذلك غير واقع فى الدنيا ، ولا يمتنع على نبى عدم العلم بتفاصيل الشئون الإلهية قبل أن يعلمها الله إياه ، وقد قال لرسوله محمد ﷺ « وقل رب زدنى علما » .

ولذلك كان أئمة أهل السنة محقين فى الاستدلال بسؤال موسى رؤية الله على إمكانها بكيفية تليق بصفات الإلهية لانعلم كنهها وهو معنى قولهم « بلا كيف » .

وكان المعتزلة غير محقين فى إستدلالهم بذلك على إستحالتها بكل صفة .

وقد يؤول الخلاف بين الفريقين إلى اللفظ فإن الفريقين متفقان على إستحالة إحاطة الإدراك بذات اللهواستحالة التحيز ، وأهل السنة قاطعون بأنها رؤية لا تنافى صفات الله تعالى .

وأعلم بأن سؤال موسى رؤية الله تعالى طلب على حقيقته كما يؤذن به سياق الآية وليس هو السؤال الذى سأله بنو إسرائيل المحكى فى سورة البقرة بقوله « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .

وقـــد نفت « لن » رؤية موسى ربه نفيا لا طمع بعده للسائل فى الإلحاح والمراجعة بحيث يعلم أن طلبته متعذرة الحصول فلا دلالة فى هذا النفى على استمراره فى الدار الآخرة .

والاستدراك المستفاد من « لكن » لرفع توهم المخاطب الاقتصار على نفى الرؤية بدون تعليل ولا إقناع ، أو أن يتوهم أن هذا المنع لغضب على السائل ومنقصة فيه فلذلك يعلم من حرف الاستدراك أن بعض ما يتوهمه سيرفع وذلك أنه أمره بالنظر إلى الجبل الذى هو فيه هل يثبت فى مكانه ، وهذا يعلم منه أن الجبل سيتوجه إليه شىء من شأن الجلال الإلهى ، وأن قوة الجبل لا تستقر عند ذلك التوجه العظيم فيعلم موسى أنه أحرى بتضاؤل قواه الفانية لو تجلى له شىء من سبحات الله تعالى .

وقوله « فسوف ترانى » ليس بوعد بالرؤية على الفرض لأنه سبق قوله « لن ترانى » أزال طماعية السائل الرؤية ، ولكنه إيذان بأن المقصود من نظره إلى الجبل أن يرى رأى اليقين عجز القوة البشرية عن رؤية الله تعالى بالأحرى من عدم ثبات قوة الجبل فصارت قوة الكلام أن الجبل لا يستقر مكانه من التجلى الذى يحصل عليه فلست أنت بالذى ترانى لأنك لا تستطيع ذلك .

## معنى التجلى

التجلى حقيقة الظهور وإزالة الحجاب ، ولعله أريد به إزالة الحوائل المعتادة التى جعلها الله حجابا بين الموجودات الأرضية وبين قوى الجبروت التى استأثر الله تعالى بتصريفها على مقادير مضبوطة ومتدرجة فى عوالم مترتبة ترتيباً يعلمـــه الله ، فإذا أزال الله الحجاب المعتاد بين شىء من الأجسام الأرضية وبين شىء من تلك القوى المؤثرة تأثيراً خارقا للعادة

إتصلت القوة بالجسم اتصالا تظهر له آثار مناسبة لنوع تلك القوة ، فتلك الإزالة هي التي إستعير لها التجلي المسند إلى الله تعالى تقريباً للأفهام، فلما اتصلت قوة ربانية بالجبل تماثل إتصال الرؤية إندك الجبل .

ومما يقرب هذا المعنى ما رواه الترمذي وغيره من طرق عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ قوله تعالى : « فلما تجلى ربه للجبل » فوضع إبهامه قريباً من طرف خنصره يقال مقدار التجلي . وصعق موسى من اندكاك الجبل فعلم موسى أنه لو توجه ذلك التجلي إليه لا نتثر جسمه قضاضا .

وقد صار الجبل دكا أي مدكوكا مدقوقا مهدوماً ، فسقط موسى على الأرض مغشيا عليه قال تعالى : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا » الأعراف (١٤٣) .

ولما رجع له الإدراك أثنى على الله ونزهه عما لا يليق به لمناسبة سؤاله منه ما تبين له أنه لا يليق به سؤاله دون استئذانه ، وتحقق إمكانه كما قال تعالى لنوح « فلا تسألن ما ليس لك به علم » هود (٤٦) .

وأنشأ توبة بعدم العود إلى مثل ذلك دون إذن من الله ، وهـــذا كقول نوح عليه السلام « رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم » .

« فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » وهذا دليل عن قوة إيمان موسى حتى أنه يبادر إليه حين تردد غيره فيه ممن كان الإيمان وصفهم ولقبهم ، أي الإيمان بالله وصفاته كما يليق به .

## امتنان الله على موسى

ونادى الله موسى تأنيساً له وإزالة لروعه بأنه أصطفاه وآثره وفضله على جميع الناس الموجودين فى زمنه ، فهو مفضل على الناس يومئذ لأنه رسول ولتفضيله بمزية الكلام .

فهو أفضل من أخيه هارون لأن موسى أرسل بشريعة عظيمة ، وكلمه الله ، وهارون أرسله الله معاونا لموسى ولم يكلمه الله ولذلك قال : « برسالاتى وبكلامى » .

وما ورد فى الحديث من النهى عن التفضيل بين الأنبياء محمول على التفضيل الذى يحمل التفضيل بين الأنبياء شغلا للناس فى نواديهم بدون مقتض معتبر للخوض فى ذلك ، وهذا امتنان من الله تعالى لموسى « قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » الأعراف ( ١٤٤ ) .

## شريعة موسى

أعطى الله الألواح لموسى فى المناجاة وفيها أصول كليات هامة للشريعة التى أوحى الله بها إلى موسى .

وتسميتها بالألواح لأن الألواح التى أعطيها موسى كانت من حجارة فهى على صورة الألواح .

وأسندت الكتابة إلى الله تعالى لأنها كانت مكتوبة نقشا فى الحجر من غير فعل إنسان بل بمحض قدرة الله تعالى ؛ فقد أسند الكلام إلى الله فى قوله « وبكلامى » .

وقد أنزل الله فيها كل شيء تحتاج إليه الأمة فى دينها ، وفيها الوصايا العشر التى اشتهرت عند بنى إسرائيل ، والتى كلم الله بها موسى فى جبل سيناء .

وفيها الموعظة التى هى نصح بإرشاد مشوب بتحذير من لحاق ضر فى العاقبة أو بتحريض على جلب نفع مغفول عنه .

والتفصيل : هو التبيين للمجملات وأمره أن يأخذها بقوة ، تمثيل لحالة العزم على العمل بما فى الألواح بمنتهى الجد والحرص دون تأخير ولا تساهل ولا إنقطاع عند المشقة ولاملل بحالة القوى الذى لايستعصى عليه عمل يريده .

وهذا الأخذ هو حظ الرسول وأصحابه المبلغين للشريعة والمنفذين لها . فالله المشرع ، والرسول المنفذ وأصحابه وولاة الأمور هم أعوان على التنفيذ ، وإنما اقتصر على أمر الرسول بهذا الأخذ لأنه من خصائص من يقوم مقامه فى حضرته وعند مغيبه ، وهو وهم فيما سوى ذلك كسائر الأمة قال تعالى :

« وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة » .

## حظ الأمة من الشريعة

إن قوله : « وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » توجه إلى ما هو حظ عموم الأمة من الشريعة وهو التمسك بها والعمل بما فيها .

وكان الأخذ فى قوله : « فخذها » مقصود به حظ ولى الأمر ، فهو مستعمل فى معنى التلقى والحفظ لأنه أهم من الأخذ بمعنى التمسك والعمل ،

أما الثانى فهو حظ جميع الأمة ، وأمرهم أن يأخذوا بأحسنها أى بالأحسن الذى هو لها وهو جميع ما فيها ، لظهور أن ما فيها من الشرائع ليس بينه تفاضل بين أحسن ودون الأحسن بل كله مرتبة واحدة فيما عين له ، ولظهور أنهم لا يؤمنون بالأخذ ببعض الشريعة وترك بعضها ، ولأن الشريعة مفصل فيها مراتب الأعمال ، فلو أن بعض الأعمال كان عندها أفضل من بعض كالمندوب بالنسبة إلى المباح ، وكالرخصة بالنسبة إلى العزيمة كان الترغيب فى العمل بالأفضل مذكورا فى الشريعة فكان ذلك من جملة الأخذ بها ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » الزمر ( ٥٥ ) .

والمعنى : وأمر قومك يأخذوا بما فيها لحسنها وحذرهم من التفريط فى شىء مما كتب له فى الالواح فقال « سأريكم دار الفاسقين » الاعراف ( ١٤٥ ) .

أى سأبين لكم عقاب الذين لا يأخذون بها .

وعبر بقوله « سأريكم » دون سأدخلكم ، لأن منع معظم القوم الذين كانوا مع موسى من دخول الأرض المقدسة لماامتنعوا من قتال الكنعانيين حيث « قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض » المائدة ( ٢٦ ) .

وقد روى عن قتادة أن دار الفاسقين هى دار العمالقة والجبابرة وهى الشام .

ومن الخطأ تفسير من فسروا دار الفاسقين بأنها أرض مصر ، فإنهم قد كانوا بها وخرجوا منها ولم يرجعوا إليها .

والعدول عن تسمية الأمم بأسمائهم إلى التعبير عنهم بوصف الفاسقين

لانها أدل على تسبب الوصف فى المصير الذى صاروا إليه ، ولأنه أجمع وأوجز .

واختيار وصف الفاسقين دون المشركين والظالمين الشائع فى التعبير عن الشرك فى القرآن للتنبيه على أن عاقبتهم السوأى تسببت على الشرك وفاسد الأعمال معا .

عناية الله بموسى وقومه

أكمل الله عنايته بموسى وقومه لأن بنى إسرائيل كانوا يهابون أولئك الأقوام الجبارين ويخشونهم « قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين» المائدة ( ٣٥ ) .

فوعده بقوله : « سأصرف عن آياتى » الاعراف ( ١٤٦ ) .

فالله تعالى يدفع عن تعطيل آياته وإبطالها والآيات هى الشريعة ، ووعد الله أهلها بأن يورثهم أرض الشام ، والمعنى سأتولى دفعهم عنكم ، وهذا عناية من الله بموسى وقومه بما يهيء لهم من أسباب النصر على أولئك الأقوام الأقوياء كإلقاء الرعب فى قلوبهم وتشتيت كلمتهم ، وإيجاد الحوادث التى تفت فى ساعد أعدائهم .

وهؤلاء الأقوام قد جبلوا على التكبر فى الأرض والإعراض عن الآيات ، وقد إنتهوا إلى حد أنهم إذا وصلت إليهم الآيات ماتت قلوبهم . فقد تكبروا فى الأرض ، وليس تكبرهم مختفيا مقتصرا على أنفسهم بل هو مبثوث فى الأرض وأثره شائع فيها ، ولزيادة التشنيع قال « بغير الحق » وهذا وصف كاشف إذ التكبر لا يكون له سبق فى جانب الخلق ، وإنما هو وصف لله سبق ، لأنه العظيم على كل مخلوق ، وليس تكبر الله بمقصود أن يحترز عنه حتى يجعل القيد « بغير الحق » للاحتراز عنه .

ومن العلماء من جعل قوله «بغير الحق» قيداً للتكبر وجعل من التكبر ماهو حق لأن للحق أن يتكبر على المبطل ،ومنه المقالة المشهورة (التكبر على المتكبر صدقة ) وهذه المقالة المستشهد بها جرت على المجاز أو الغلط .

وهم أيضاً لايلازمون طريق الرشد والصلاح وفعل النافع ، والشيء الصالح كله من الإيمان والأعمال الصالحة ،ويلازمون طريق الغى والفساد فهم إن يدركوا الشيء الصالح لم يعملوا به لغلبة الهوى على قلوبهم ، وإن يدركوا الفساد عملوا به لغلبة الهوى ، والعمل به حمل للنفس على كلفة وذلك تأباه الأنفس التى نشأت على متابعة مرغوبها ، وذلك شأن الناس الذين لم يروضوا أنفسهم بالهدى الإلهى ، بخلاف الغى فإنه ماظهر فى العالم إلامن آثار شهوات النفوس ودعواتها التى يزين لهاالظاهر العاجل وتجاهل عواقب السوء الآجلة كما جاء فى الحديث « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » ، وهذا ماأشارت إليه الآية .

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخـــذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » الأعراف (١٤٦ ) .

وكان كبرهم وعدم إيمانهم واتباعهم سبيل الغى وإعراضهم عن سبيل الرشد سببه تكذيبهم بالآيات « ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا » فابتدأوا بالتكذيب ولم ينظروا ولم يهتموا بالتأمل فى الآيات فاستمروا على الكبر ومامعه ، فصرف الله قلوبهم عن الانتفاع بالآيات ، وأفاد لفظ «كذبوا» أن وصف التكذيب قديم راسخ فيهم فكان رسوخ ذلك فيهم سببا فى أن خلق الطبع والختم على قلوبهم فلا يشعرون بنقائصهم ولا يصلحونها ، فلايزالون متكبرين معرضين غاوين .

والغفلة هى انصراف العقل والذهن عن تذكر شىء بقصد أو بغير قصد وأكثر استعماله فى القرآن فيما كان عن قصد بإعراض وتشاغل، والمذموم منها ما كان عن قصد وهو مناط التكليف والمؤاخذة.

## ماوقع لبنى إسرائيل من عبادة العجل أيام مناجاة موسى

لقد أشار القرآن إلى ماوقع لهم أيام مناجاة موسى فى الطور فى الشهر الثالث لخروجهم من مصر فقال «وماأعجلك عن قومك ياموسى» طه (٨٣).

فقد لام الله موسى حين تعجل مفارقة قومه ليحضر إلى المناجاة قبل الوقت الذى عينه الله له، اجتهادا منه ورغبة فى تلقى الشريعة حسبما وعده الله قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع فى ذلك إلا السبق إلى مافيه خير لنفسه ولقومه، فلامه الله على أن غفل عن مراعاة مايحف بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم الله بالمحافظة على العهد ويحذرهم مكر من يتوسم فيه مكرا، فكان فى ذلك بمنزلة أبى بكر حين دخل المسجد فوجد النبى ﷺ راكعا فركع ودب إلى الصف فقال له النبى ﷺ «زادك الله حرصاً ولاتعد»، وقريب من تصرف موسى عليه السلام أخذ المجتهد بالدليل الذى له معارض دون علم بمعارضة وكان ذلك سبب افتتان قومه بصنع صنم يعبدونه، وليس فى التوراة مايشير إلى أكثر من صنع بنى إسرائيل العجل من ذهب اتخذوه إلها فى مدة مغيب موسى، وإن سبب ذلك استبطاؤهم رجوع موسى «قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى»

وقوله «هم أولاء على أثرى» يدل على أنهم كانوا سائرين خلفه وأنه سبقهم إلى المناجاة،

واعتذر عن تعجله بأنه عجل إلى استجابة أمر الله مبالغة فى إرضائه ، فقوله « فإنا قد فتنا قومك من بعدك » فيه ضرب من الملام على التعجل بأنه تسبب عليه حدوث فتنة فى قومه ليعلمه أن لا يتجاوز ماوقت له ولو كان لرغبة فى ازدياد من الخير .

والمعنى هم أولاء سائرون عـــلى مواقع أقدامى أى موالون لى فى الوصول .

وإسناد الفتن إلى الله باعتبار أنه مقدره وخالق أسبابه البعيدة .

وأما إسناده الحقيقى فهو الذى فى قوله « وأضلهم السامرى » لأنه السبب المباشر لضلالهم المسبب لفتنتهم .

التعريف بالسامرى والسامريين

قال بعض أهل التفسير : يحتمل أن يكون السامرى نسبا إلى قرية إسمها السامرة من قرى مصر فيكون فتى قبطيا اندس فى بنى اسرائيل لتعلقه بهم فى مصر ، أو لصناعة يصنعها لهم .

وذكر الزمخشرى والقرطبى أن السامرى اسمه موسى بن ظفر وأنه ابن خالة موسى أو ابن خاله ، وأنه كفر بدين موسى بعد أن كان مؤمنا به .

واعلم أن السامريين لقب لطائفة من اليهود يقال لهم أيضا السامرة ، لهم مذهب خاص مخالف لمذهب جماعة اليهودية فى أصول الدين ، فهم لا يعظمون بيت المقدس ، وينـكرون نبوة أنبياء بنى اسرائيل عدا موسى وهارون ويوشع .

وما كان هذا الشذوذ فيهم إلا من بقايا تعاليم الإلحاد التى كانوا يتلقونها فى مدينة السامرة المبنية على التساهل والاستخفاف بأصول الدين والترخص فى تعظيم آلهة جيرانهم الكنعانيين أصهار ملوكهم ، ودام ذلك الشذوذ فيهم إلى زمن عيسى عليه السلام وقد نهى الحواريين عن الدخول إلى مدينتهم .

### انفعال موسى من قومه

« فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى » طه (٨٦)

إن الغضب هو انفعال للنفس وهيجان ينشأ عن إدراك ما يسودها ويسخطها دون خوف كما أن الأسف هو إنفعال للنفس ينشأ عن إدراك ما يحزنها وما تكرهه مع انكسار الخاطر وقد اجتمع الانفعالان فى نفس موسى لأنه يسوءه وقوع ذلك فى أمته وهو لا يخالفهم .

فانفعاله المتعلق بحالهم غضب ، وهو أيضا يحزنه وقوع ذلك وهو فى مناجاة الله تعالى التى كان يأمل أن تكون سبب رضى الله عن قومه فإذا بهم أتوا بما لا يرضى الله فقد انكسر خاطره بين يدى ربه .

وهذا ابتداء وصف قيام موسى فى جماعة قومه وفيهم هارون وفيهم السامرى ، وهو يقرع أسماعهم بزواجر وعظه « فابدأ بخطاب قومه ثم وجه الخطاب إلى هارون بقوله « قال يا هارون ما منعك »

وافتتاح الخطاب بـ « يا قوم » تمهيد للوم ؛ لأن انجرار الأذى للرجل من قومه أحق فى توجيه الملام عليهم وذلك قوله « فأخلفتم موعدى »

وأنكر عليهم زعمهم أن الله لم يعدهم وعدا حسنا ، وهو وعده موسى بإنزال التوراة ، ومواعدته ثلاثين ليلة للمناجاة ، وقد أعلمهم بذلك ، فهو وعد لقومه لأن ذلك لصلاحهم ، ولأن الله وعدهم بأن يكون ناصرا لهم على عدوهم وهاديا لهم فى طريقهم وهو المحكى فى قوله « وواعدناكم جانب الطور الأيمن » طه (٨٠)

أى ولم يبعد زمن وعد ربكم إياكم حتى يكون لكم يأس من الوفاء

فتكفروا وتكذبوا من بلغكم الوعد وتعبدوا ربا غير الذى دعاكم إليه من بلغكم الوعد فتكون لكم شبهة عذر فى الإعراض عن عبادة الله ونسيان عهده فقال «أفطال عليكم العهد» أى طال المعهود لكم وبعد زمنه حتى نسيتموه وعملتم بخلافه «بل أردتم أن يحل عليكم غضب» فلا يكون كفركم إذن إلا إلقاء بأنفسكم فى غضب الله كحال من يحب أن يحل عليه غضب من الله «فأخلفتم موعدى» وهو وعد الله على لسان موسى لأنه الواسطة .

جوابهم على موسى بالاعتذار

«قالوا ماأخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها» .

إنما القائل بعضهم تصدوا مجيبين عن القوم كلهم وهم كبراء القوم ، وأهل الصلاح منهم ، وما فعلنا ذلك بملكنا وإرادتنا واختيارنا لاخلاف موعدك ، فما تجرأنا ولكن غرهم السامرى ، وغلبهم دهماء القوم ، وهذا إقرار من المجيبين بما فعله دهماؤهم .

ونفوا أن يكون إخلافهم العهد عن قصد للضلال وأرادوا أن يتنصلوا من تبعة نكث العهد ، واعتذروا بأنهم غلبوا على رأيهم بتضليل السامرى فأدمجت فى هذا الاعتذار الإشارة إلى قصة صوغ العجل الذى عبدوه ، واغتروا بماموه لهم من أنه إلههم المنشود من كثرة ماسمعوا من رسولهم أن الله معهم أوأمامهم ، وبما جاش فى خواطرهم من الطمع فى رؤيته تعالى .

وقد حملنا أنفسنا الأوزار والأثقال من الحلى والمصوغات ، وقد كان بنو اسرائيل حين أزمعوا الخروج وقد احتالوا على المصريين فاستعار كل واحد من جاره المصرى حليا فضة وذهبا وأثاثا .

وقد تخوفوا من تلاش تلك الزينة فارتأوا أن يصوغوها قطعة واحدة أو قطعتين ليتأتى لهم حفظها فى موضع مأمون ، وقذفوا الحلى وألقوا المصوغات فى نار السامرى للصوغ ، فهذا حكاية جوابهم لموسى مجملا مختصرا شأن المعتذر بعذر واه أن يكون خجلان من عذره فيختصر الكلام

## قصة صوغ العجل الذى عبدوه

« فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى » طه ( ٧٨—٨٨ ) أى فمثل قذفنا زينة القوم فى النار ، ألقى السامرى شيئا من زينة القوم فأخرج لهم عجلا .

والمقصود من هذا التشبيه التخلص إلى قصة صوغ العجل الذى عبدوه

والمعنى : فمثل ذلك القذف الذى قذفنا ما بأيدينا من زينة القوم ألقى السامرى ما بيده من النار ليذوب ويصوغها « فأخرج لهم صورة عجل بجسده بشكله وقوائمه وجوانبه ، وليس مجرد صورة منقوشة على طبق من فضة أو ذهب .

وقد صنعه بحيلة مستورة عنهم حتى أتمه فأخرجه لهم .

والخوار هو صوت البقر ، وكان الذى صنع لهم العجل عارفا بصناعة الحيل التى كانوا يصنعون بها الأصنام ويجعلون فى أجوافها وأعناقها منافذ كالزمارات تخرج منها أصوات إذا أطلقت عندها رياح بالكير ونحوه .

وصنع لهم السامرى صنما على صورة عجل لأنهم كانوا قد اعتادوا فى مصر عبادة العجل ( أبيس ) فلما رأوا ما صاغة السامرى فى صورة معبود عرفوه من قبل ورأوه يزيد عليه بأن له خوارا رسخ فى أوهامهم الأفنة أن ذلك هو الإله الحقيقى الذى عبروا عنه بقولهم « هذا إلهكم وإله

موسى ، لأنهم رأوه من ذهب أو فضة فتوهموا أنه أفضل من العجل (إبيس) وإذقد كانوا يثبتون إلها محجوبا عن الأبصار وكانوا يتطلبون رؤيته فقالوا لموسى « أرنا الله جهرة » حينئذ توهموا أن هذه ضالتهم المنشودة وقد قال السامرى ذلك لأنه نسى ما كان تلقاه من هدى ، أو قال ذلك فكان قوله سببا فى نسيانه ما كان عليه من هدى إذ طبع الله على قلبه بقوله ذلك فحرمه التوفيق من بعد .

تسفيه رأى الذين اتخذوا العجل إلها

سفه الله رأى من اتخذوا العجل إلها حيث اتخذوه من مصوغهم من أقراط الذهب التى فى آذان نسائهم وبناتهم ، وصار كجسم العجل فى الصورة والمقدار إلا أنه ليس بحى فلا روح فيه .

وما وقع فى القصص أنه كان لحما ودما ويأكل ويشرب فهو من وضع القصاصين ، كيف يكون والقرآن يقول « من حليهم » له خوار « فلو كان لحما ودما لكان ذكره أدخل فى التعجب منه .

وقد نشأ الخوار حيث جعل صانع العجل فى باطنه تجويفا على تقدير من الضيق مخصوص ، واتخذ له آلة نافخة خفية فإذا حركت آلة النفخ انضغط الهواء فى باطنه وخرج من المضيق فكان له صوت كالخوار وهذه صنعة كصنعة الصفارة والمزمار .

وكان الكنعانيون يجعلون مثل ذلك لصنمهما المسمى بعلا .

وبين فساد نظرهم فى اعتقادهم بقوله « ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا » الأعراف (١٤٨)

فهم يشاهدون أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا فلا شبهة لهم فى اتخاذه إلها بأن خصائصه خصائص العجماوات فجسمه جسم عجل وهو من نوع ليس

أرق أنواع الموجودات المنحطة عنهم ، فاذا رأوا منه ما يستأهل الإلهية فضلا على أن ترتقى بهم إلى الصفات التى يستحقها إله الحق، والذين عبدوه أشرف منه حالا وأهدى .

وليس المقصود من هذا الاستدلال على الألوهية بالتكليم والهداية والإ للزم إثبات الإلهية لحكماء البشر .

فكيف يدعون الإلهية للعجل وهم يرون أنه لا يتكلم ولا يستطيع نفعا ولاضرا « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا » طه ( ٨٩ )

فلا يجيب لهم قولا لأن ذلك محل العبرة من فقدانه صفات العاقل لأنهم يدعونه ويثنون عليه ويمجدونه وهو ساكت لا يشكر لهم ولا يعدهم باستجابة ، وشأن الكامل إذا سمع ثناء أو تلقى طلبة أن يجيب ، ولا شك فى ذلك الجمع العظيم من هو بحاجة إلى جلب نفع أو دفع ضر ، وأنهم يسألونه ذلك فلم يجدوا مافيه نفعهم أو دفع ضر عنهم مثل ضر عدو أو مرض ، فهم قد شاهدوا عدم غنائه عنهم ، ولأن شواهد حاله من عدم التحرك شاهدة بأنه عاجز عن أن ينفع أو يضر .

وقدم الضر على النفع قطعا لعذرهم فى اعتقاد إلاهيته ، لأن عذر الخائف من الضر أقوى من عذر الراغب فى النفع .

### تنبيه هارون لهم وجوابهم عليه

« ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى طه ( ٨–٨١ ) .

إن هارون قد وعظهم ونبههم إلى ذلك إذ ذكرهم بأنه فتنة فتنهم بها السامرى وأن ربهم هو الرحمن لا مالا يملك لهم نفعاً فضلا عن الرحمة وأمرهم بأن يتبعوا أمره وقد أكد بحرف التحقيق ولام القسم لإبطال ما فى كتب اليهود من أن هارون هو الذى صنع لهم العجل ، وأنه لم ينكر عليهم عبادته ، وغاية الأمر أنه كان يستهزىء بهم فى نفسه ، وذلك إفك عظيم فى كتابهم ودليل على تحريفهم لكتابهم .

فقد نصحهم هارون قبل رجوع موسى إليهم وإنكاره عليهم وقال لهم ماهو إلا فتنة لكم وليس رباً وإن ربكم الرحمن الذى يرحمكم فى سائر الأحوال .

فأجابوه بأنهم لايزالون عاكفين على عبادته حتى يرجع موسى فيصرح لهم بأن ذلك العجل ليس هو ربهم .

ورتب هارون خطابه على حسب الترتيب الطبيعى لأنه ابتدأ بزجرهم عن الباطل وعن عبادة ماليس برب ، ثم دعاهم إلى معرفة الرب الحق ، ثم دعاهم إلى اتباع الرسل إذ كان رسولا بينهم ، ثم دعاهم إلى العمل بالشرائع فما كان منهم إلا التصميم على استمرار عبادتهم العجل ، فأجابوا هارون جواباً جازماً بالعكوف والملازمة بقصد القربة والتعبد حتى عودة موسى لهم .

## محاورة موسى لأخيه هارون

« قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ، ألا تتبعني أفعصيت أمري ، قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ، طه (٩٢—٩٣—٩٤) .

علم موسى أن هارون مخصوص من قومه بأنه لم يعبد العجل إذ لا يجوز عليه ذلك ، لأن الرسالة تقتضي العصمة فلذلك خصه بخطاب يناسب حاله بعد أن خاطب عموم الأمة بالخطاب السابق ، أي لا مانع لك من اللحاق بي ، لأنه أقامه خليفة عنه فلما لم يمتثلوا أمره كان عليه أن يرد الخلافة إلى من استخلفه ، وشدد التوبيخ بإنكار أن يكون لهارون مانع حينئذ من اللحاق بموسى قائلا : مامنعك أن تتبعني ، وأنكر عليــه ثانياً بقوله أفعصيت أمري . فما كان من جواب هارون إلا نداء بقوله يا ابن أم لقصد الترقيق والإستشفاع ، وهو مؤذن بأن موسى حين وبخه أخذ بشعر لحية هارون ، ويشعر بأنه يجذبه إليه ليلطمه وقد صرح به في سورة الأعراف بقوله تعالى : « وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وأخذه من لحيته أشد ألما وأنكى في الإذلال .

وناداه بـ « يا ابن أم » دون الأخ ، لأن ذكر الأم تذكير بأقوى أواصر الأخوة وهي آصرة الولادة من بطن واحــد والرضاع من لبن واحد .

واعتذر هارون عن بقائه بين القوم بقوله « إني خشيت أن تقول فرقت » أي أن تظن ذلك بي فتقوله لوما وتحميلا لتبعة الفرقة التي ظن أنها واقعة لا محالة إذ أظهر هارون غضبه عليهم لأنه يتبعه طائفة من الثابتين على الإيمان ويخالفهم الجمهور فيقع انشقاق بين القوم ربما اقتتلوا فرأى

من المصلحة أن يظهر الرضى عن فعلهم ليهدأ الجمهور ويصبر المؤمنون اقتداء بهارون .

ورأى في سلوك هذه السياسة تحقيقاً لقول موسى له «وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين» في سورة الأعراف ، وهو الذى أشار إليه في سورة طه بقوله : «ولم ترقب قولى» .

وهذا اجتهاد منه في سياسة الأمة إذ تعارضت عنـــده مصلحتان ، مصلحة حفظ العقيدة ، ومصلحة حفظ الجماعة من الهرج ، وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمة فرجح الثانية ،وإنما رجحها لأنه رآها أدوم فإن مصلحة حفظ العقيدة يستدرك فواتها الوقتى برجوع موسى وإبطاله عبادة العجل حيث غيوا عكوفهم على العجل برجوع موسى بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا انثلمت عسر تداركها .

وتضمن هذا قوله «إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى» .

وكان اجتهاده ذلك مرجوحاً ، لأن حفظ الأصل الأصيل للشريعة أهم من حفظ الأصول المتفرعة عليه لأن مصلحة صلاح الإعتقاد هى أم المصالح التى بها صلاح الإجتماع .

ولذلك لم يكن موسى خافياً عليه أن هارون كان من واجبه أن يتركهم وضلالهم وأن يلتحق بأخيه مع علمه بما يفضى إلى ذلك من الإختلاف بينهم فإن حرمة الشريعة بحفظ أصولها وعدم التساهل فيها وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها فى الأمة والعمل بها ، وهذا بعض ما اعتذر به هارون وحكى عنه فى سورة الأعراف أنه اعتذر بقوله : «إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى» .

## مخاطبة هارون ووجوه القوم

إن رجوع موسى بعد انقضاء المدة الموعود بها فى حالة غضب مشعر بأن الله أوحى إليه فأعلمه بما صنع قومه فى مغيبه وقد صرح بذلك فى سورة طه حيث قال « فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى » .

وقد رجع موسى غاضباً من عصيان قومه أسفاً وحزينا على فساد أحوالهم « ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً » .

خاطب هارون ووجوه القوم بقوله : « بئسما خلفتمونى من بعدى » لأنهم خلفاء موسى فى قومهم ، فأما هارون فلأنه لم يحسن الخلافة بسياسة الأمة كما كان يسوسها موسى .

وأما القوم فلأنهم عبدوا العجل بعد غيبة موسى وقد حذرهم من الإشراك وزجرهم عن تقليد المشركين حين قالوا له اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، وقد أمرهم بالمحافظة على الشريعة وانتظار رجوعه فلم يتموا ذلك واستعجلوا فبدلوا وغيروا ، ونظيره قوله فى سورة طه حكاية عن موسى « قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى » .

وإلقاء الألواح ورميها من يده إلى الأرض فى قوله «وألقى الألواح» يؤذن بأنه لما نزل من المناجاة كانت الألواح فى يده ، ثم إن إلقاءه إياها إنما كان إظهاراً للغضب ، أو أثرا من آثار فوران الغضب لما شاهدهم على تلك الحالة ، وماذكر القرآن ذلك الإلقاء إلا للدلالة على هذا المعنى إذ ليس فيه من فوائد العبرة فى القصة إلا ذلك ، فلا يستقيم

قول من فسرها بأن الإلقاء لأجل إشغال يده بجر رأس أخيه ، لأن ذكر ذلك لا جرور فيه .

وروى أن موسى كان فى خلقه ضيق ، وكان شديداً عند الغضب ، ولذلك وكز القبطى فقضى عليه ولذلك أخذ برأس أخيه يجره إليه فهو دليل على فظاعة الفعل الذى شاهده من قومه ، وذلك علامة على الفظاعة ، وتشنيع عليهم وليس تأديباً لهم ، لأنه لا يكون تأديبهم بإلقاء ألواح كتب فيها ما يصلحهم لأن ذلك لا يناسب تصرف النبوة .

( ولذلك جزمنا بأن إعراض رسول الله ﷺ عن كتابة الكتاب الذى هم بكتابته قبيل وفاته لم يكن تأديباً للقوم على اختلافهم عنده كما هو ظاهر قول ابن عباس بل إنما كان ذلك لما رأى من اختلافهم فى ذلك فرأى أن الأولى ترك كتابته إذ لم يكن الدين محتاجاً إليه ) .

وماروى أن الألواح كانت من حجر يقتضى أنها اعتراها انكسار ، ولكن ذلك الإنكسار لا يذهب ما احتوت عليه من الكتابة .

وأما ماروى أنها لما تكسرت ذهب ستة أسباعها ، أو ذهب تفصيلها وبقيت موعظتها فهو من وضع القصاص والله تعالى يقول : « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم بربهم يرهبون » .

وأما أخذه برأس أخيه هارون يجره إليه أى إمساكه بشعر رأسه وذلك بؤلمه فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدة على عبدة العجل واقتصاره على تغيير ذلك عليهم بالقول ، وذلك دليل على أنه غير معذور فى اجتهاده الذى أفصح عنه بقوله : « إنى خشيت أن تقول فرقت بين

بنى إسرائيل ولم ترقب قولى » لأن ضعف مستنده جعـــله بحيث يستحق التأديب ، ولم يـكن له عذر ، وكان موسى هو الرسول لبنى إسرائيل ، وماهارون إلامن جملة قومه بهذا الاعتبار ، وإنما كان هارون رسولا مع موسى لفرعون خاصة ولذلك لم يسع هارون إلا الاعتذار والاستصفاح منـــه ،

وفى هذا دليل على أن الخطأ فى الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه فى إجراء الأحكام عليه وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد .

ولا يظن بأن موسى عاقب هارون قبل تحقيق التقصير .

ولا يقع جر الشعر إلا مع كلام توبيخ وهو ما حكى فى سورة طه بقوله « قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمرى » على عادة القرآن فى توزيع القصة ، وإقتصاراً على موقع العبرة ليخالف أسلوب قصصه الذى قصد منه الموعظة أساليب القصاصين الذين يقصدون الخبر بكل ما حدث .

وفى سورة الأعراف « ابن أم » بحذف حرف النداء ، والنداء بهذا الوصف للترقيق والاشتشفاع ، وحذف حرف النداء لإظهار ماصاحب هارون من الرعب والإضطراب .

أو لأن كلامه هذا وقع بعد كلام سبقه فيه حرف النداء وهو المحكى فى سورة طه « قال يا ابن أم ، لا تأخذ بلحيتى » ثم قال بعد ذلك « ابن أم إن القوم استضعفونى » فهما كلامان متعاقبان ، ويظهر أن المحكى فى سورة الأعراف هو القول الثانى وأن ما فى سورة طه هو الذى إبتدأ به هارون لأنه كان جوابا عن قول موسى « ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن » .

وذكره بصلة الرحم لأن إخوة الأم أشد أواصر القرابة لإشتراك الأخوين فى الإلف من وقت الصبا والرضاع .

وقال هارون إن القوم استضعفونى أى حسبونى ضعيفاً لاناصر لى ، لأنهم تمالأوا على عبادة العجل ولم يخالفهم إلا هارون فى شرذمة قليلة « وكادوا يقتلوننى » يدل على أنه عارضهم معارضة شديدة ثم سلم خشية القتل .

وطلب من أخيه الكف عن عقابه الذى يشمت به الأعداء لأجله ويجعله مع عداد الظالمين فقال « فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » .

والشماتة : سرور النفس بما يصيب غيرها من الأضرار ، وإنما تحصل من العداوة والحسد ، والأعداء هم الذين دعوا إلى عبادة العجل لأن هارون أنكره عليهم فكرهوه لذلك .

أوأن تكون شماتة الأعداء كلمة جرت مجرى المثل فى الشيء الذى يلحق بالمرء سوءاً شديداً سواء كان للغير أعداء أو لم يكونوا جريا على غالب العرف ، وكأنه قال لا تحسبنى واحداً من القوم الظالمين الذين أشركوا بالله عبادة العجل أو لا تجعلنى فى العقوبة معهم لأن موسى قد أمر بقتل الذين عبدوا العجل .

## عدم تعنيف السامرى بعمله

توجه موسى بالخطاب إلى السامرى الذى كان سبباً فى إضلال القوم .

ولعل موسى لم يغلظ له القول كما أغلظ لهارون لأنه كان جاهلا بالدين فلم يكن فى ضلاله عجب .

ولعل هذا يؤيد ما قيل : إن السامرى لم يكن من بنى إسرائيل ولكنه كان من القبط فاندس فى بنى إسرائيل ، ولما كان موسى مبعوثا لبنى إسرائيل خاصة ولفرعون وملئه لأجل إطلاق بنى إسرائيل كان إتباع غير الإسرائيليين لشريعة موسى أمراً غير واجب على غير الإسرائيليين ولكنه مرغب لما فيه من الاهتداء ، ولذلك لم يعنفه موسى لأن الأجدر بالتعنيف هم للقوم الذين عاهدوا الله على الشريعة .

وقال موسى له ما خطبك أى ما طلبك ؟ وماهى مصيبتك التى أصبت بها القوم ، وما غرضك بما فعلت ؟ « قال فما خطبك يا سامرى » طه (٩٥ — ٩٦) .

فكان جواب السامرى « قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى » .

ذهب الجمهور إلى أن بصرت بما لم يبصروا أى نظرت ما لم ينظروا ، والقبضة هى غلق الراحة على شىء ، والنبذ إلقاما فى اليد ، والأثر ما يتركه الماشى من صورة قدمه فى الرمل أو التراب .

وهذه الكلمات على حقائقها . وتعين صرف الرسول عن المعنى المشهور إلى جبريل فإنه رسول من الله إلى الأنبياء .

وروى القصاصون قصة لاأساس لها قالوا : إن السامرى فتنه الله فأراه الله جبريل راكباً فرسا فوطىء حافر الفرس مكانا فإذا هو مخضر بالنبات ، فعلم السامرى أن أثر جبريل إذا ألقى فى جماد صار حيا . فأخذ قبضة من ذلك التراب وصنع عجلا وألقى القبضة عليه فصار جسداً حياً له خوار كخوار العجل ، فعبر عن ذلك الإلقاء بالنبذ .

وهذا الذى ذكروه لا يوجد فى كتب الإسرائيليين ولا ورد به أثر

من السنة وإنما هى أقوال لبعض السلف ولعلها تسربت للناس من روايات القصاصين .

قال أبو مسلم الأصفهانى هذه الكلمات الست تصرف إلى معان مجازية .

« بصرت » بمعنى علمت واهتديت إلى علم مالم يعلموه ، وهو علم صناعة التماثيل والصور الذى به صنع العجل وعلم الحيل الذى أوجد به خوار العجل .

وكانت القبضة بمعنى النصيب القليل، وكان الأثر بمعنى تعاليم الشريعة، وكان نبذت بمعنى أهملت ونقضت ، أى كنت ذا معرفة إجمالية من هدى الشريعة فانخلعت عنها بالكفر ، وبذلك يصح أن يحمل لفظ الرسول على المعنى الشائع المتعارف وهو من أوحى إليه بشرع من الله وأمر بتبليغه .

وكان المعنى إنى بعملى العجل للعبادة نقضت اتباع شريعة موسى ، واعترف بأنه جهل فضل واعتذر بأن ذلك سولته له نفسه .

وبهذا المعنى فسر أبو مسلم الأصفهانى ، ورجحه الزمخشرى بتقديمه فى الذكر على تفسير الجمهور واختاره الفخر .

## أمره بالإنصراف وعقاب الله له فى الدنيا والآخرة

لم يزد موسى فى عقاب السامرى على أن خلعه من الأمة إما لأنه لم يكن من أنفسهم فلم يكن بالذى تجرى عليه أحكام الشريعة .

وإما لأن موسى أعلم بأن السامرى لا يرجى صلاحه فيكون ممن حقت عليهم كلمة العذاب مثل الذين قال الله فيهم « إن الذين حقت عليهم

كلمت ربك لايؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » يونس (٩٦ ، ٩٧).

ويكون قد أطلع الله موسى على ذلك بوحى أو إلهام مثل الذى قاتل قتالا شديداً مع المسلمين قال النبي ﷺ « أما إنه من أهل النار » ، ومثل المنافقين الذين أعلم الله بهم محمداً ﷺ ، وكان النبي ﷺ أعلم حذيفة بن اليمان ببعضهم .

وأمر موسى عليه السلام السامرى بالانصراف والخروج من وسط الأمة « قال فاذهب » .

وأما عقاب الله له فى الدنيا « فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس .

وفى الآخرة « وإن لك موعداً لن تخلفه » .

فهذا إخبار بما عاقبه الله فى الدنيا والآخرة ، فجعل حظه فى حياته أن يقول لا مساس ، أى سلبه الله الأنس الذى فى طبع الإنسان فعوضه به هوسا ووسواساً وتوحشاً فأصبح متباعداً عن مخالطة الناس عائشاً وحده لا يترك أحداً يقترب منه . فإذا لقيه إنسان يخشى منه وقال له لا تمسنى ولا أمسك ، وهذه حالة فظيعة أصبح بها سخرية .

وتوعده بعذاب الآخرة فجعل الحشر والعذاب موعداً له « وعد الله لا يخلف الله وعده » ، وقال : « لن تخلفه » أى لا يؤخره الله عنك .

## نهاية العجـــل

بعد أن أوعد موسى السامرى بين له وللذين اتبعوه ضلالهم بعبادتهم العجل بأنه لا يستحقق الإلهية ، لأنه معرض للإمتهان والعجز حيث قال : « انظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً » طه (٩٧) .

فجعل الاستدلال بالنظر إشارة إلى أنه دليل بين لا يحتاج المستدل به إلى أكثر من المشاهدة فإن دلالة المحسوسات أوضح من دلالة المعقولات وأضاف الإله إلى ضمـــير السامرى تهكما به وتحقيراً له ، وأنه الذى لا يستحق أن يعكف عليه وأن تدوم ملازما لعبادته دون الله تعالى وكانت نهاية العجل الإحراق الشديد وأن يذيبه بالنار حتى يفسد شكله ويصيره قطعاً ويذريه فى البحر الأحمر المسمى بحر القلزم ، وكانوا حينئذ على ساحله فى سفح الطور .

ونسف العجل أشد فى إعدامه من تحريقه ، وهو لا يتردد فى ذلك ولا يخش غضبه كما يزعمون أنه إله .

## خطاب موسى للأمة

وقد التفت من خطاب السامرى إلى خطاب الأمة إعراضا عن خطابه تحقيراً له حيث قال . « إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما » طه ( ٩٨ ) .

وقد قصد بذلك تنبيههم على خطئهم وتعليمهم صفات الإله الحق ، واقتصر على الوحدانية وعموم العلم ، لأن الوحدانية تجمع جميع الصفات ، وأما عموم العلم فهو إشارة إلى علم الله تعالى بجميع الكائنات الشاملة لأعمالهم ، فقد وسع علمه كل شىء بحيث لا يعجز عن الإطلاع على أخفى الأشياء .

دعاء موسى لأخيه وغضب الله على من عبدوا العجل

دعا موسى ربه فطلب المغفرة لنفسه تأدبا مع الله فيما ظهر عليه من الغضب ، ثم طلب المغفرة لأخيه فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من تفريط « قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » الأعراف (١٥١ — ١٥٢).

وجاء بلفظ الأخوة زيادة فى الاستعطاف عسى الله أن يكرم رسوله بالمغفرة لأخيه .

وبعد أن دعا موسى لأخيه بالمغفرة أخبر أن الله غضب على الذين عبدوا العجل قال تعالى : « إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب عن ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين » .

وأخبر أنه سيظهر أثر غضبه عليهم وستنالهم ذلة فى الدنيا ، وذلك بوحى تلقاه ، وانتهى كلام موسى عند قوله فى الحياة الدنيا .

ومعنى سينالهم أى يصيبهم غضب من ربهم المراد بالغضب ظهور أثره من الخذلان ومنع العناية ، وأما نفس الغضب فهو حاصل فى الحال وغضب الله تعالى إرادته السوء بعبده وعقابه فى الدنيا والآخرة أو فى إحداهما ، والذلة خضوع فى النفس واستكانة من جراء العجز عن الدفع ومعنى نيل الذلة إياهم أنهم يصيرون مغلوبين لمن يغلبهم ، فقد يكون ذلك بتسليط العـــدو عليهم ، أو تسلب الشجاعة من نفوسهم بحيث يكونون خائفين العدو ولو لم يسلط عليهم .

أو ذلة الاغتراب إذ حرمهم الله ملك الأرض المقدسة فكانوا بلا وطن طول حياتهم حتى انقرض ذلك الجيل كله ، وهذه الذلة عقوبة دنيوية قد لا تمحوها التوبة ، فإن التوبة إنما تقتضى العفو عن عقاب التكليف ولا تقتضى

ترك المؤاخذة بمصائب الدنيا ، لأن العقوبات الدنيوية مسببات تنشأ عن أسبابها فلا يلزم أن ترفعها التوبة إلا بعناية إلهية خاصة ، كما يؤخذ من حديث الإسراء لما أتى رسول الله ﷺ بإناءين أحدهما من لبن والآخر من خمر فاختار اللبن فقال جبريل : « الحمد لله الذى هداك للفطرة لو أخذت الخمر لغوت أمتك » .

وقد يمحو الله العقوبة الدنيوية إذا رضى عن الجانى والله ذو فضل عظيم .

والافتراء : الكذب الذى لاشبهة لكاذبه فى اختلاقه وقد حذرهم موسى من عبادة الأصنام حين جاوز بهم البحر « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم » ، فجعل الله جزاءهم على الافتراء الغضب والذلة وذلك إذا فعلوا مثله بعد أن جاءتهم الموعظة من الله ، ولذلك لم يكن مشركوا العرب أذلاء . فلما جاء محمد وهداهم فاستمروا على الافتراء عاقبهم الله بالذلة ، فأزال مهابتهم من قلوب العرب واستأصلهم قتلا وأسرا وسلب ديارهم ، فلما أسلم منهم من أسلم صاروا أعزة بالإسلام .

أخذ الألواح بعد الهدوء

« ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون الأعراف ( ١٥٤ ) .

فقد شبه ثوران الغضب فى نفس موسى المنشىء خواطر العقوبة لأخيه ولقومه وإلقاء الألواح حتى انكسرت بكلام شخص يغريه بذلك ، وحسن هذا التشبيه أن الغضبان يجيش فى نفسه حديث للنفس يدفعه إلى أفعال يطفىء بها ثوران غضبه ، فإذا سكن غضبه وهدأت نفسه كان ذلك بمنزلة سكون المغرى فلذلك أطلق عليه السكوت .

وبعد الهدوء أخذ الألواح التى ألقاها وقد أخذها حفظا لها للعمل بها لأن انكسارها لا يضيع ما فيها من الكتابة .

وهذه الألواح التى أخذها جعلت منها نسخة التى قال الله فيها وفى نسختها هدى ورحمة كما أن اللوحتين الأصليتين عوضا بنسخة لها .

وقد قيل إن رضاض الألواح الأصلية وضعه فى تابوت العهد الذى أشار إليه بقوله تعالى : « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى » البقرة (٢٤٨) .

## ميقات المناجاة الثانية

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى » .

لما كانت المناجاة الثانية كالتكملة للأولى تعين أن موسى استصحب معه السبعين المختارين ولذلك وقعت فيها الرجفة مثل المرة الأولى ، ولم يذكر القرآن أن الرجفة أخذتهم فى المرة الأولى وإنما ذكر أن موسى خر صعقا ، وتعين أن يكون السبعون قد أصابهم ما أصاب موسى لأنهم كانوا فى الجبل أيضاً .

والظاهر أن المراد هو حكاية حال ميقات المناجاة الثانية التى وقع فيها الاستغفار لقومه وأن الرجفة المحكية هنا رجفة أخذتهم مثل الرجفة التى أخذتهم فى المناجاة الأولى ، لأن الرجفة تكون من تجلى أثر عظيم من آثار الصفات الإلهية ؛ فإن قول موسى « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » يؤيد بأنه يعنى به عبادتهم العجل وحضورهم ذلك وسكوتهم وهو المعنى بقوله « إن هى إلا فتنتك » ، فقد خشى موسى أن تكون تلك الرجفة مقدمة عذاب كما كان محمد ﷺ يخشى الريح أن تكون مبدأ عذاب .

وموضع العبرة من هذه القصة هو التوقى من غضب وخوف بطشه ، ومقام الرسل من الخشية من الله والأخذة هى الإصابة الشديدة المتمكنة منهم تمكن الآخذ من المأخوذ حتى قال موسى ليتك أردت إهلاك السبعين الذين معه من قبل خطيئة القوم التى تسبب عنها الرجوع إلى المناجاة .

وإنما قال موسى « أهلكتهم من قبل وإياى » ولم يقل أهلكتنا للتفرقة بين الإهلاكين .

لأن إهلاك السبعين لأجل سكوتهم على عبادة العجل ، وإهلاك موسى قد يكون لأجل أن لا يشهد هلاك القوم وقد خشى موسى أن الله يهلك جميع القوم بتلك الرجفة لأن سائر القوم أجدر بالإهلاك من السبعين.

كما خشى أن تكون تلك الرجفة أمارة غضب ومقدمة إهلاك عقوبة عبادتهم العجل فلذلك قال « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » فالسفهاء هم الذين عبدوا العجل » .

وسمى شركهم سفها لأنه شرك مشوب بخفة عقل إذ جعلوا صورة صنعوها بأنفسهم إلهاً لهم ، فقد خشى الهلاك لأن القوم قد استحقوا العذاب ، ويخشى أن يشمل العذاب من كان مع القوم المستحقين وإن لم يشاركهم فى سبب العذاب كما قال : « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » الأنفال (٢٥) .

وفى حديث أم سلمة أنها قالت « يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ، قال نعم إذا كثر الخبث » وفى حديث آخر « ثم يحشرون على نياتهم » .

وقد خشى موسى سوء الظن لنفسه ولأخيه وللبرءاء من قومه أن يظنهم الأمم التى يبلغها خبرهم أنهم مجرمون .

وجمع الضمير فى قوله : « أتهلكنا » لأن هذا الإهلاك هو الإهلاك المتوقع من استمرار الرجفة ، وتوقعه واحد فى زمن واحد .

وليست الفتنة الحاصلة بعبادة العجل إلا فتنة من تقديرك ، وخلق أسباب حدوثها مثل سخافة عقول القوم وإعجابهم بأصنام الكنعانيين وغيبة موسى ، ولين هارون ، وخشيته من القوم ، وخشية شيوخ بنى إسرائيل من عامتهم وغير ذلك مما يعلمه الله وأيقن موسى به إيقانا إجماليا فقال : « إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » الأعراف (١٥٥) .

وكلام موسى وإن كان طلبا وهو لايستدعى جوابا فإن جواب الطالب عناية به وفضل « قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء » .

فبين الله له أن عذاب الدنيا يصيب الله به من يشاء من عباده ، وقد أجمل الله سبب المشيئة وهو أعلم به فالكلام تضمن طمأنة موسى من أن يناله العذاب هو والبرءاء من قومه ، لأن الله أعظم من أن يعاملهم معاملة المجرمين ، وكأنه قال إنى قادر على تخصيص العذاب بمن عصوا ، وتنجية من لم يشارك فى العصيان .

# الفصل الرابع

## النعم التى سيقت إلى بنى إسرائيل

النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل كثيرة ، فهم أمثل أمة ذات كتاب مشهور فى العالم كله وهم قد سكنوا المدينة وما حولها ، وهم الذين ظهر منهم العناد لهـــذا الدين ، ومن أجل ذلك لم يدع اليهود إلى توحيد ولا إعتراف بالخالق لأنهم موحدون ، ولكنه دعاهم إلى تذكر نعم الله عليهم ، وإلى ما كانت تلاقيه أنبياؤهم من مكذبيهم ، ليذكروا أن تلك سنة الله وليرجعوا على أنفسهم بمثل ما كانوا يؤنبون به من كذب أنبياءهم ، وذكرهم ببشارات رسلهم وأنبيائهم بنبي يأتى بعدهم .

ولتوجيه الخطاب إليهم طريقـــة أخرى وهى أنه جادلهم بالأدلة الدينية العلمية ، وإثبات صدق الرسالة بما تعارفوه من أحوال الرسل ولم يعرج لهم على إثبات الصدق بدلالة معجزة القرآن .

فكان خطابهم بالدلائل الدينية وبحجج الشريعة الموسوية ليكون دليل صدق الرسول فى الاعتبار بحاله ، وأنه جاء رسول الله محمد ﷺ على وفاق أحوال إخوانه المرسلين السابقين .

وقد أفاض القرآن فى ذلك وتدرج فيه من درجة إلى أختها بأسلوب بديع فى مجادلة المخاطبين ، وأفاد فيه تعلم المسلمين حتى لا يفوتهم علماء بنى إسرائيل قال تعالى « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل » الشعراء (١٩٧) .

فقد كان العلم يومئذ معرفة التشريع ومعرفة إخبار الأنبياء والأمم

الماضية وأحوال العالمين العلوى والسفلى مع الوصايات الأدبية والمواعظ الأخلاقية ، فبذلك كان اليهود يفوقون العرب ، ومن أجله كانت العرب تسترشدهم فى الشئون وبه امتاز اليهود على العرب فى بلادهم بالفكرة المدنية ، وكان علم عامة اليهود فى هذا الشأن ضعيفاً .

وإنما انفردت بعلمه علماؤهم وأحبارهم فجاء القرآن فى هذه المجادلات معلما أيضاً للمسلمين وملحقا لهم بعلماء بنى إسرائيل حتى تكون الدرجة العليا لهم لأنهم يضمون هذا العلم إلى علومهم اللسانية ، ونباهتهم الفكرية ، فتصبح عامة المسلمين مساوية فى العلم لخاصة الإسرائيليين .

وهذا معنى عظيم من معانى تعميم التعليم والإلحاق فى مسابقة التمدين .

وبه تنكشف لكم حكمة من حكم تعرض القرآن لقصص الأمم وأحوالهم فإن فى ذلك مع العبرة تعليما إصطلاحيا ، ولقد نعد هذا من معجزات القرآن وهو أنه شرح من أحوال بنى إسرائيل من لا يعلمه إلا أحبارهم وخاصتهم مع حرصهم على كتمانه والاستئثار به خشية المزاحمة فى الجاه والمنافع ، فجاء القرآن على لسان أبعد الناس عنهم وعن عامهم صادقاً بما لا يعلمه غير خاصتهم ، فكانت هذه المعجزة للكتابيين قائمة مقام المعجزة البلاغية للأميين .

وخاطب القرآن ذرية يعقوب بقوله « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » البقرة (٤٠) .

وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول يا أيها اليهود . لكون يعقوب هو إسم القبيلة أما اليهود فهو إسم النحلة والديانة ، ولأن من كان متبعاً دين اليهودية من غير بنى إسرائيل كحمير لم يعتد بهم ، لأنهم تبع لبنى إسرائيل ، فلو آمن بنو إسرائيل بمحمد ﷺ لآمن أتباعهم ، لأن المقلد تبع لمقلده ، ولأن هذا الخطاب للتذكير بنعم أنعم الله بها على أسلافهم ، وكرامات أكرمهم بها فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب وأعقابه .

وتوجيه الخطاب إلى جميع بنى إسرائيل يشمل علماءهم وعامتهم لأن ماخوطبوا به هو من التذكير بنعمة الله على أسلافهم وبعهد الله لهم .

وكذلك نجد خطابهم فى الأغراض التى يراد منها التسجيل على جميعهم يكون بنحو « ياأهل الكتاب » أو بوصف اليهود الذين هادوا أو بوصف النصارى .

فأما إذا كان الغرض التسجيل على علمائهم نجد القرآن يعنونهم بوصف « الذين أوتوا الكتاب » أو يكون الخبر مما يناسب علماءهم خاصة مثل ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا »

وإسرائيل لقب يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم .

قال ابن عباس : معناه عبد الله لأن إسرا بمعنى عبد وإيل اسم الله .

والمقصود من الذكر هنا الذكر العقلى إذ ليس المراد ذكر النعمة باللسان فقد قال عمر رضى الله عنه أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه ، فسمى النوعين ذكراً .

والنعمة هى جميع ماأنعم الله به على المخاطبين مباشرة أو بواسطة الإنعام على أسلافهم ، فإن النعمة على الأسلاف نعمة على الأبناء ، لأنها سمعة لهم ، وقدوة يقتدون بها ، وبركة تعود عليهم منها ، وصلاح حالهم الحاضر كان بسببها وبعض النعم يكون فيما فطر الله عليه الإنسان من فطنة وسلامة ضمير . وتلك قد تورث فى الأبناء ولولا تلك النعم لهلك سلفهم أو لساءت حالهم فجاء أبناؤهم فى شرحال ، فيشمل هذا جميع النعم التى أنعم الله بها عليهم ، فهو بمنزلة اذكروا نعمى عليكم .

وقد تأيد قصد عموم النعمة بأن المقام للامتنان والدعوة إلى الإسلام فيناسبه تكثير النعم . والنعمة على أسلافهم نعمة عليهم . وقد تتابعت

عليهم إذ بوأهم قرى فى بلاد العرب بعد أن سلبت بلادهم فلسطين وجعلهم فى بحبوحة من العيش مع الأمن والثروة ومسالمة العرب لهم .

والأمر بذكر النعمة هنا مراد منه شكرها ، ومن أول مراتب الشكر ترك المكابرة فى تلقى ماينسب إلى الله من الرسالة بالنظر فى أدلتها ومتابعة ما يأتى به المرسلون .

كما أمرهم بتفكر النعم التى أنعم بها عليهم لينصرفوا عن حسد غيرهم ، فإن تذكير المحسود بما عنده من النعم عظة له ، وصرف له عن الحسد الناشىء عن الاشتغال بنعم الغير ، وهذا تعريض بهم أنهم حاسدون للعرب فيما أوتوا من الكتاب والحكمة ببعثة محمد ﷺ ، وانتقال النبوة من بنى إسرائيل إلى العرب .

وإنما ذكروا بذلك لأن للنفس غفلة عما هو قائم بها ، وإنما تشتغل بأحوال غيرها لأن الحس هو أصل المعلومات ، فإذا رأى الحاسد نعم الغير نسى أيضاً أنه فى نعمة فإذا أريد صرفه عن الحسد ذكر بنعمه حتى يخفف حسده فإن حسدهم هو الذى حال دون تصديقهم به :

وأعيد الخطاب إلى بنى اسرائيل فى قوله « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » البقرة ( ٤٧ )

للاهتمام بهذا الخطاب ومايترتب عليه فإن الخطاب الأول قصد منه تذكيرهم بنعم الله تعالى ليكون ذلك التذكير داعية لامتثال مايرد إليهم من الله من أمر ونهى على لسان نبيه — ﷺ — ثم كان الرجوع إلى تفصيل النعم قضاء لحقها من التعداد فإن ذكر النعم تمجيد للمنعم وتكريم للمنعم عليه ، وعظة له ولمن يبلغهم خبر ذلك تبعث على الشكر .

فالتكرار هنا نكتة جمع الكلامين بعد تفريقهما ونكتة التعداد لما فيه إجمال معنى النعمة .

والنعمة هنا مراد بها جميع النعم أى كما عليكم أن تذكروا تفضيلى إياكم على العالمين أى عالمى عصرهم ، فلا يلزم تفضيل كل فرد من بنى إسرائيل على أفراد من الأمم بلغوا مرتبة صالحة ، لأن التفضيل فى مثل هذا يراد به تفضيل المجموع كما تقول قريش أفضل من طىء ، وإن كان فى طىء حاتم الجواد ، فكذلك تفضيل بنى إسرائيل على جميع أمم عصرهم .

وفى تلك الأمم أمم عظيمة كالعرب والفرس والروم والهند والصين وفيهم العلماء والحكماء ودعاة الإصلاح والأنبياء لأنه تفضيل المجموع على المجموع .

ومعنى هـــذا التفضيل أن الله قد جمع لهم من المحامد التى تتصف بها القبائل والأمم مالم يجمعه لغيرهم : وهى شرف النسب وكمال الخلق وسلامة العقيدة ، وسعة الشريعة ، والحرية وعناية الله بهم فى سائر أحوالهم ، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى « وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » المائدة (٢٠) .

وهذه الأوصاف ثبتت لأسلافهم فى وقت اجتماعها ، وقد شاع أن الفضائل تعود على الخلف بحسن السمعة وإن كان المخاطبون يومئذ بحال التفضيل على العالمين ولكنهم ذكروا بما كانوا عليه .

ولما ذكرهم بالنعمة وخاصة تفضيلهم على العالمين فى زمانهم وكان ذلك منشأ غرورهم بأنه تفضيل ذاتى فتوهموا أن التقصير فى العمل الصالح لا يضرهم فحذرهم من ذلك بقوله « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً » .

## تذكيرهم بنعم الله عليهم

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » المائدة (٢٠—٢٢) .

إن هذه القصة مشتملة على تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم ، وحث على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الطاعة تمهيداً لطلب امتثالهم .

وقدم موسى أمره لبنى إسرائيل بحرب الكنعانيين بتذكيرهم بنعمة الله عليهم لبهيء نفوسهم إلى قبول هذا الأمر العظيم عليهم ، وليوثقهم بالنصر إن قاتلوا أعداءهم فذكر نعمة الله عليهم وعد لهم ثلاث نعم عظيمة .

أولاها : أن فيهم أنبياء أى فى عمود نسبهم فيما مضى مثل يوسف والأسباط وموسى وهارون

وموقع النعمة فى إقامة الأنبياء بينهم أن فى ذلك ضمان الهدى لهم ، والجرى على مراد الله تعالى منهم ، وفيه أيضاً حسن ذكر لهم بين الأمم وفى تاريخ الأجيال .

وثانيها : أن جعلهم ملوكا أى كالملوك فى تصرفهم فى أنفسهم وسلامتهم من العبودية التى كانت عليهم للقبط ، وجعلهم سادة على الأمم التى مروا بها أو أن الخبر بشارة لهم بما سيكون لهم .

النعمة الثالثة : أنه آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، إذ آتاهم الشريعة الصحيحة الواسعة الهدى المعصومة ، وأيدهم بالنصر فى طريقهم ، وساق

إليهم رزقهم المن والسلوى أربعين سنة ، وتولى تربية نفوسهم بواسطة رسله .

وأمرهم أن يتهيأوا لدخول الأرض المقدسة بمعنى المطهرة المباركة أى التى بارك الله فيها ، أو لأنها قدست بدفن إبراهيم عليه السلام فى أول قرية من قراها وهى حبرون ، وهى أرض كنعان ، وهذه الأرض هى أرض فلسطين ، فهى الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط وبين نهر الأردن والبحر الميت فتنتهى إلى حماة شمالا وإلى غزة وحبرون جنوبا .

وقد حرضهم على دخولها بقوله « التى كتب الله لكم » أى قدر وقضى ، وذلك أن الله وعد إبراهيم أن يورثها ذريته ، ووعد الله لا يخلف .

وحذرهم مما يوجب الانهزام بقوله « ولا ترتدوا على أدباركم » لأن ارتداد الجيش على الأعقاب من أكبر أسباب الانخذال .

وأرادوا بالقوم الجبارين فى الأرض سكانها الكنعانيين والعمالقة .

والجبار هو القوى الذى يجبر الناس على ما يريد .

وكانت جواسيس موسى الإثنا عشر الذين بعثهم لارتياد الأرض قد أخبروا القوم بجودة الأرض وبقوة سكانها ، وهذا كناية عن مخافتهم من الأمم الذين يقطنون الأرض المقدسة فامتنعوا من اقتحام القرية خوفا من أهلها ، وأكدوا الامتناع من دخول أرض العدو بقولهم « إنا لن ندخلها » فإذا خلت من الجبارين الذين فيها سيدخلونها حيث قالوا « فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » .

## رفضهم لدخول الأرض المقدسة

« قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إنى لاأملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » المائدة ( ٢٣ — ٢٦ )

إن الرجلين هما يوشع بن نون وكالب بن يفنة قد وصفا بأنهما من الذين يخافون الله تعالى تعريضاً بأن الذين عصوهما لايخافون الله .

والخوف من الله نعمة منه تعالى عليهما ، وهذا يقتضى أن الشجاعة فى نصر الدين نعمة من الله على صاحبها ، فقد أنعم عليهما بسلب الخوف من نفوسهم وبمعرفة الحقيقة ، فإذا اجترتم الثغر ،ووطئتم أرض الأعداء غلبتموهم فى قتالهم فى ديارهم .

وقد يسمى الثغر البحرى باباً أيضاً مثل باب المندب والظاهر أن هذه القرية هى أريحا حاضرة العمالقة يومئذ . وهى المذكورة فى قوله فى سورة البقرة « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية »

وبعد أن أمرا القوم باتخاذ الأسباب والوسائل أمراهم بالتوكل على الله والاعتماد على وعده ونصره وإنما خاطبوا موسى عقب موعظة الرجلين لهم رجوعاً إلى إبايتهم الأولى التى شافهوا بها موسى إذ قالوا : « إن فيها قوما جبارين » أو لقلة أكتراثهم بكلام الرجلين ، وأكدوا الامتناع الثانى من الدخول بعد المحاورة أشد توكيد دل على شدته بثلاث مؤكدات : إن . ولن ، وكلمة أبداً .

ومعنى قولهم « فاذهب أنت وربك فقاتلا » إن كان خطابا لموسى فقد طلبوا منه معجزة كما تعودوا من النصر فطلبوا أن يهلك الجبارين بدعوة موسى .

ولم يريدوا الاستخفاف بموسى ، لأنه وصفهم بالفاسقين ، والفسق يطلق على المعصية الكبيرة فإن عصيان أمر الله فى الجهاد كبيرة ولذلك قال تعالى « فلا تأس على القوم الفاسقين » وعن عبد الله بن مسعود قال : أتى المقداد بن الأسود النبى وهو يدعو يوم بدر فقال : « يارسول الله لانقول كما قالت بنو إسرائيل « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » الحديث .

فلا تظن من ذلك أن هذه الآية كانت مقروءة بينهم يوم بدر لأن سورة المائدة من آخر مانزل .

وإنما تكلم المقداد بخبر كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ فيما يحدثهم به عن بنى اسرائيل ثم نزلت فى هذه الآية بذلك اللفظ .

وقال موسى مناجيا ربه أو بمسمع منهم ليوقفهم على عدم امتثالهم أمر ربهم « رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى » .

والمعنى لاأقدر إلا على نفسى وأخى ، وإنه لم يعد الرجلين الذين قالا « ادخلوا عليهم الباب » لأنه خشى أن يستهويهما قومهما .

ويجوز أن يريد بأخيه يوشع بن نون لأنه كان ملازمه فى شئونه وسماه الله فتاه فى قوله « وإذ قال موسى لفتاه » .

وعطفه على نفسه لأنه كان محرضا للقوم على دخول القرية .

وطلبا من الله النجاة قائلين « افرق بيننا وبين القوم الفاسقين »

أى لاتؤاخذنا بجرمهم لأنه خشى أن يصيبهم عذاب فى الدنيا فيهلك الجميع .

وأجاب الله موسى بجواب جامع « فإنها محرمة عليهم أربعين سنة » لأن الله أعلم موسى بالعقاب الذى يصيب به الذين عصوا أمره ، فسكن هاجس خوفه أن يصيبهم عذاب يعم الجميع ، وحصل العقاب لهم على العصيان انتصارا لموسى .

فإن قلت : هذا العقاب قد نال موسى منه ما نال قومه فإنه بقى معهم فى التيه حتى توفى .

قلت : كان ذلك هينا على موسى لأن بقاءه معهم لإرشادهم وصلاحهم وهو خصيصة رسالته فالتعب فى ذلك يزيده رفع درجة ، أما هم فكانوا فى مشقة .

وقد بقى بنو اسرائيل مقيمين فى جهات ضيقة ، ويسيرون الهوينا على طريق غير منتظم حتى بلغوا جبل نيبوا على مقربة من نهر الأردن ، فهناك توفى موسى وهناك دفن ، ولا يعرف موضع قبره .

ومادخلوا الأرض المقدسة حتى عبروا الأردن بقيادة يوشع بن نون خليفة موسى .

وقد استثناه الله تعالى هو وكالب بن يفنة لأنهما لم يقولا لن ندخلها بوأما بقية الذين أرسلهم موسى لاختيار الأرض فوافقوا قومهم فى الامتناع من دخولها وقد علم الله أن موسى يحزنه نزول العقاب بهم فنهاه عن الحزن لأنهم لا يستأهلون الحزن لأجل فسقهم « فقال» فلا تأس على القوم الفاسقين » .

## الأسباط ومنة تقسيمهم

إن بنى يعقوب هم الأسباط أى أسباط إسحاق ومنهم تشعبت قبائل بنى إسرائيل وهم إثنا عشر إبنا وهم راوبين، وشمعون ولاوى، ويهوذا، ويساكر، وزبولون ( وهؤلاء أمهم لينة ) ويوسف، وبنيامين ( أمهما راحيل ) ودان ونفتالى ( أمهما بلهة ) وجاد وأشير ( أمهما زيفة ).

وقد أخبر القرآن بأن جميعهم صاروا أنبياء وأن يوسف كان رسولا.

وواحد الأسباط سبط وهو ابن الإبن أى الحفيد قال تعالى: «وقطعناهم إثنتى عشرة، أسباطا أمما» الأعراف (١٦٠).

والمراد بالتقطيع التقسيم، وليس المراد بهذا الخبر الذم ولا بالتقطيع العقاب، لأن ذلك التقطيع منة من الله وهو من محاسن سياسة الشريعة الموسوية ومن مقدمات نظام الجماعة وهو نظير ما فعل عمر بن الخطاب من تدوين الديوان، وهم كانوا منتسبين إلى أسباط إسحاق ولكنهم لم يكونوا مقسمين عشائر لما كانوا فى مصر، ولما اجتازوا البحر فكان التقسيم بعد اجتيازهم البحر الأحمر وقبل انفجار العيون، وهو ظاهر القرآن فى سورة البقرة وفى سورة الأعراف لقوله فيهما «قد علم كل أناس مشربهم».

وذكر فى سورة الأعراف أن الاستسقاء عقب الانقسام إلى إثنتى عشرة أمة وذلك ضرورى أن يكون قبل الاستسقاء لأنه لو وقع السقى قبل التقسيم لحصل من التزاحم على الماء ما يفضى إلى الضر بالقوم.

ونبههم الله على قصد المنة بكونهم أمما من آباء إخوة وأن كل سبط من أولئك قد صار أمة.

وأشار القرآن إلى منة أخرى مستقلة فقال «وأوحينا إلى موسى

إذ استسقاه قومه أن أضرب بعصاك الحجر فانبجست منه إثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم » الأعراف (١٦٠).

وهذا مظهر من مظاهر حكمة تقسيمهم إلى إثنى عشر سبطا ، وانبجست أى انشقت .

نعمة الإنجاء من فرعون

إن تنجية أسلافهم تنجية للخلف ، فإنه لو بقى أسلافهم فى عذاب فرعون لكان ذلك لاحقا لأخلافهم ، فلذلك كانت منة التنجية منتين منة على السلف ومنة على الخلف فوجب شكرها على كل جيل منهم ، ولذلك أوجبت عليهم شريعتهم الاحتفال بما يقابل أيام النعمة عليهم من أيام كل سنة وهى أعيادهم ، وقد قال الله لموسى « وذكرهم بأيام الله » إبراهيم(٥).

وعن نعمة الإنجاء قال الله تعالى « وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » البقرة(٤٩) .

والأهل والآل يراد به الأقارب والعشيرة والمراد من آل فرعون نوابه ووكلاؤه ، فلما كان فرعون فى الدنيا عظيما ، وكان الخطاب متعلقا بنجاة دنيوية من عظيم فى الدنيا أطلق على أتباعه آل فلا توقف فى ذلك حتى يحتاج لتأويله بقصد التهكم كما أول قوله تعالى « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » غافر(٤٦) لأن ذلك حكاية لكلام يقال يوم القيامة وفرعون يومئذ محقر هالك عنه سلطانه .

وخصوصية لفظ آل هنا لأن المقام لتعظيم النعمة وتوفير حق الشكر ، والنعمة تعظم بما يحف بها ، فالنجاة من العذاب وإن كانت نعمة مطلقا إلا أن كون النجاة من عذاب ذى قدرة ومكانة أعظم لأنه لا يكاد يفلت منه أحد .

وإنما جعلت النجاة من آل فرعون ولم تجعل من فرعون مع أنه الآمر بتعذيب بنى إسرائيل تنبيها على أن هؤلاء الوكلاء والمكلفين ببنى إسرائيل كانوا يتجاوزون الحد المأمور به فى الإعنات على عادة المنفذين فإنهم أقل رحمة وأضيق نفوسا من ولاة الأمور .

سبب استقرار بنى اسرائيل بمصر

جاء فى التاريخ أن مبدأ استقرار بنى إسرائيل بمصر كان سببه دخول يوسف عليه السلام فى تربية العزيز طيفار كبير شرطة فرعون ، وكانت مصر منقسمة إلى قسمين مصر العليا الجنوبية المعروفة اليوم بالصعيد لحكم فراعنة من القبط وقاعدتها طيبة .

ومصر السفلى وهى الشمالية وقاعدتها منفيس وهى القاعدة الكبرى التى هى مقر الفراعنة .

وهذه قد تغلب عليها العمالقة من الساميين أبناء عم ثمود ، وهم الذين يلقبون فى التاريخ المصرى بالرعاة الرحالين وبالهكسوس فى سنة ٣٣٠٠ أو سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد على خلاف ناشىء عن الاختلاف فى مدة بقائهم بمصر الذى انتهى ١٧٠٠ ق م عند ظهور العائلة الثامنة عشر .

وكان يوسف عند رئيس شرطة فرعون العمليق ، واسم فرعون يومئذ أبو فيس أو أبيبى وأهل القصص ومن تلقف كلامهم من المفسرين سموه ريان بن الوليد ، وهذا من أوهامهم ، وكان ذلك فى حدود سنة ١٧٣٩ ق م .

ثم كانت سكنى بنى إسرائيل مصر بسبب تنقل يعقوب وأبنائه إلى مصر حين ظهر أمر يوسف وصار بيده حكم المملكة المصرية السفلى ، وكانت معاشرة الإسرائيليين للمصريين حسنة زمنا طويلا غير أن

الإسرائيليين قد حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم فلم يعبدوا آلهة المصريين وسكنوا جميعا بجهة يقال لها أرض (جاسان)، ومكث الاسرائيليون على ذلك نحوا من أربعمائة سنة تغلب فى خلالها ملوك المصريين على ملوك العمالقة وطردوهم من مصر حتى ظهرت فى مصر العائلة التاسعة عشر وملك ملوكها جميع البلاد المصرية ونبغ فيهم رمسيس الثانى الملقب بالأكبر فى حدود سنة ١٣١١ ق م .

وكان محاربا باسلا وثارت فى وجهه الممالك التى أخضعها أبوه ومنهم الأمم الكائنة بأطراف جزيرة العرب فحدثت أسباب أو سوء ظنون أوجبت تنكر القبط على الإسرائيليين وكلفوهم أشق الأعمال وسخروهم فى خدمة المزارع والمبانى وصنع الآجر .

وتقول التوراة إنهم بنوا لفرعون مدينة مخازن (فيثوم) ومدينة (رمسيس) ثم خشى فرعون أن يكون الإسرائيليون أعوانا لأعدائه عليه فأمر باستئصالهم وكأنه اطلع على مساعدة منهم لأبناء نسبهم من العمالقة والعرب فكان يأمر بقتل أبنائهم وسبى نسائهم، وتسخير كبارهم، ولا بد أن يكون ذلك لما رأى منهم من التنكر، أو لأن القبط لما أفرطوا فى استخدام العبرانيين علم فرعون أنه إن اختلطت جيوشه فى حرب لا يسلم من ثورة الإسرائيليين فأمر باستئصالهم .

وأما ما يحكيه القصاصون أن فرعون أخبره كاهن أن ذهاب ملكه يكون على يد فتى من إسرائيل فلا أحسبه صحيحا إذ يبعد أن يروج مثل هذا على رئيس مملكة فيفنى به فريقا من رعاياه اللهم إلا أن يكون الكهنة قد أغروا فرعون باليهود قصدا لتخليص المملكة من الغرباء .

أو تفرسوا من بنى إسرائيل سوء النوايا فابتكروا ذلك الأنباء الكهنوتى لإقناع فرعون بوجوب الحذر من الإسرائيليين .

ولعل ذبح الأبناء كان من فعل المصريين استخفافاً باليهود فكانوا يقتلون اليهودى فى الخصام القليل كما أنبأت بذلك آية « فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه »

والحاصل أن التاريخ يفيد على الإجمال أن عداوة عظيمة نشأت بين القبط واليهود آلت إلى أن استأصل القبط الإسرائيليين .

ولقد أبدع القرآن فى إجمالها إذ كانت تفاصيل إجمالها كثيرة لا يتعلق غرض التذكير ببيانها ، وقد عبر القرآن عن العذاب الشديد الذى كان الإسرائيليون يلاقونه بقوله « يسومونكم » ومعناها يعاملونكم معاملة محتقرة بسوء العذاب وأشده وأفظعه وهو عذاب التسخير والإرهاق وتسليط العقاب الشديد بتذبيح الأبناء وسبى نساء قومكم الأولين

والمراد من الأبناء قيل أطفال اليهود ، وقيل أريد به الرجال بدليل مقابلته بالنساء وهذا الوجه أظهر وأوفق بأحوال الأمم إذ المظنون أن المحق والاستئصال إنما يقصد به الكبار ، ولأنه على الوجه الأول تكون الآية سكتت عن الرجال إلا أن يقال إنهم كانوا يذبحون الصغار قطعاً للنسل ويسبون الأمهات استعبادا لهن ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدريج ، وإبقاء الرجال فى مثل هذه الحالة أشد من قتلهم

أو لعل تقصيراً ظهر من نساء بنى إسرائيل مرضعات الأطفال ومربيات الصغار وكان سببه شغلهن بشئون أبنائهن فكان المستعبدون لهم إذا غضبوا من ذلك قتلوا الطفل

والاستحياء يدل على الطلب للحياة أى يبقونهن أحياء أو يطلبون حياتهن

ووجه ذكره فى معرض التذكير بما نالهم عن المصائب أن هذا الاستحياء للإناث كان المقصد منه خبيثاً وهو أن يعتدوا على أعراضهن ولايجدن بدا من الإجابة بحكم الأسر والاسترقاق ولذلك أدخل فى الإشارة فى قوله « وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »

النعمة الخارقة للعادة

وزاد القرآن فى التفصيل بذكر نعمة أخرى عظيمة خارقة للعادة بها كان تمام الإنجاء من آل فرعون وهى قوله « وإذفرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » البقرة آية (٥٠)

وفى تلك النعمة بيان مقدار إكرام الله تعالى لهم ومعجزة لموسى عليه السلام فقد فصل بين أجزاء شىء متصل الأجزاء أى فصلنا بكم بحر القلزم المسمى اليوم بالبحر الأحمر ، وكان البحر يفرق وهم يدخلونه فكان الإنجاء والإغراق هو محل المنة ، كما أن فرق البحر تمهيد للمنة لأنه سبب للنجاة والهلاك وهو مع ذلك معجزة لموسى عليه السلام

وقد أشارت الآية إلى ماحدث لبنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر من لحاق جند فرعون بهم لمنعهم من مغادرة البلاد المصرية وذلك أنهم لما خرجوا ليلا إما بإذن من فرعون وإما خفية وحصل لفرعون ندم على إطلاقهم أو إغراء بعض أعوانه بصدهم عن الخروج لما فى خروجهم من إضاعة الأعمال التى كانوا يسخرون فيها ، أو لأنهم لما رآهم سلكوا طريقا غير الطريق المألوف لاجتيازهم مصر إلى الشام ظنهم يرومون الانتشار فى بعض جهات مملكته المصرية فخشى شرهم إن هم بعدوا عن مركز ملكه ومجتمع قوته وجنده

إن بنى إسرائيل لما خرجوا من جهات حاضرة مصر وهى يومئذ مدينة

منفيس(١) لم يسلكوا الطريق المألوف لبلاد الشام إذ تركوا أن يسلكوا طريق شاطىء بحر الروم ( المتوسط ) فيدخلوا برية سيناً من غير أن يخترقوا البحر ولا يقطعوا أكثر من اثنتي عشرة مرحلة أعنى مائتين وخمسين ميلا وسلكوا طريقاً جنوبية شرقية حول أعلى البحر الأحمر لئلا يسلكوا الطريق المألوفة الآهلة بقوافل المصريين وجيوش الفراعنة فيصدوهم عن الاسترسال فى سيرهم ، أو يلحق بهم فرعون من يردهم ، لأن موسى علم بوحى كما قال تعالى « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون » الشعراء (٥٢) .

وإن فرعون لا يلبث أن يصدهم عن المضى فى سيرهم فلذلك سلك بهم — بالأمر الإلهى — طريقاً غير مطروقة فكانوا مضطرين للوقوف أمام البحر فى موضع يقال له « فم الحيروث » فهنالك ظهرت المعجزة إذ فلق الله لهم البحر بباهر قدرته فأمر موسى أن يضربه بعصاه فانفلق وصار فيه طريق يبس مرت عليه بنو إسرائيل وكان جند فرعون قد لحق بهم ورام اقتحام البحر وراءهم فانطبق البحر عليهم فغرقوا

وقوله « وأغرقنا آل فرعون » أى جنده وأنصاره ، ولم يذكر فى هذه الآية غرق فرعون لأن محل المنة هو إهلاك الذين كانوا المباشرين لتسخير بنى إسرائيل وتعذيبهم والذين هم قوة فرعون

وقد ذكر غرق فرعون فى آيات أخرى نتكلم عليها فى حينها بعد .

وكان ذلك فى زمن الملك منفتاح من فراعنة العائلة التاسعة عشرة فى ترتيب فراعنة مصر عند المؤرخين .

---

(١) لأن مقر الإسرائيليين كان بمصر السفلى وكانت قاعدتها منفيس وهى يوم دخول بنى إسرائيل لحكم العمالقة وكان مقر الفراعنة أيام خروج بنى إسرائيل هى طيبة قاعدة مصر العليا ، ثم رجعوا لمنفيس ، وكان خروج بنى اسرائيل من مدنية تسمى رعميس فى جهات مصر السفلى

« وأنتم تنظرون » هذه المشاهدة زيادة فى تقرير النعمة وتعظيمها فإن مشاهدة المنعم عليه للنعمة لذة عظيمة لاسيما عند مشاهدة إغراق العدو أيضاً نعمة زائدة على أن مشاهدة فرق البحر نعمة عظيمة لما فيها من مشاهدة معجزة تزيدهم إيمانا وحادث لا تتأتى مشاهدته لأحد

تذكيرهم بعفو الله عنهم بعد جرمهم العظيم

ذكرهم الله بنعمة عفو الله عن جرمهم العظيم بعبادة غيره مما فعله سلفهم حيث قال « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون » البقرة ( ٥١ — ٥٢ ) إن العفو عن الآباء منة عليهم وعلى أبنائهم يجب على الأبناء الشكر عليها .

ووقع فى الكشاف وتفسير البغوى وتفسير البيضاوى أن الله وعد موسى أن يؤتيه الشريعة بعد أن عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد مهلك فرعون ، وهذا وهم فإن بنى إسرائيل لم يعودوا إلى مصر البتة بعد خروجهم ، كيف وأن الآيات صريحة فى أن نزول الشريعة كان بطور سيناء وأن خروجهم كان ليعطيهم الله الأرض المقدسة التى كتب الله لهم .

وقد جاء بالعفو عن الجرم العظيم حيث اتخذوا العجل معبودا لهم ، وتوسيط التذكير بالعفو عن هذه السيئة بين ذكر النعم المذكورة مراعاة لترتيب حصولها فى الوجود ليحصل غرضان غرض التذكير ، وغرض عرض تاريخ الشريعة .

والمراد من المواعدة هنا أمر الله لموسى أن ينقطع أربعين ليلة لمناجاته تعالى وإطلاق الوعد على هذا الأمر من حيث ذلك تشريف لموسى ووعد له بكلامه بإعطائه الشريعة .

وتظهر فائدة ذكر « من بعد » لزيادة التشنيع بأنهم كانوا جديرين

بانتظارهم الشريعة التى تزيدهم كمالا ، لا بالنكوص على أعقابهم عما كانوا عليه من التوحيد والانغماس فى نعم الله تعالى ، وبأنهم كانوا جديرين بالوفاء لموسى فلا يحدثوا ما أحدثوا فى مغيبه بعد أن رأوا معجزاته ، وبعد أن نهاهم عن هذه العبادة لما قالوا له إجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون .

وفائدة ذكر « من » للإشارة إلى أن الاتخاذ ابتدأ من أول أزمان بعد مغيب موسى ، وهذه حالة غريبة ، لأن شأن التغير عن العهد أن يكون بعد طول المغيب على أنهم ضعفوا بغيابه ، وتعريض بقلة وفائهم فى حفظ عهد موسى .

وإنما اتخذوا العجل تشبيها بالكنعانيين الذين دخلوا إلى أرضهم وهم الفينيقيون مكان سواحل بلاد الشام فإنهم كانوا عبدة أوثان ، كان العجل مقدساً عندهم وكانوا يمثلون أعظم الآلهة عندهم بصورة إنسان من نحاس له رأس عجل جالس على كرسى مادا ذراعيه كمتناول شىء يحتضنه ، وكانوا يحمونه بالنار من حفرة تحت كرسيه لا يتفطن لها الناس فكانوا يقربون إليه القرابين ، وربما قربوا له أطفالهم صغارا فإذا وضع الطفل على ذراعيه اشتوى فظنوا ذلك أمارة قبول القربان — فتباً لجهلهم ومايصنعون — وكان يسمى عندهم بعلا ، وهم أمة سامية لغتها وعوائدها تشبه فى الغالب لغة وعوائد العرب ، فلما مربهم بنو إسرائيل قالوا لموسى إجعل لنا إلها كما لهم آلهة فانتهرهم موسى وكانوا يخشونه ، فلما ذهب للمناجاة واستخلف عليهم هارون إستضعفوه وظنوا أن موسى هلك فاتخذوا العجل الذى صنعوه من حليهم وعبدوه ، فظلموا بذلك أنفسهم حيث قال « وأنتم ظالمون » أى لا شبهة لكم فى اتخاذه .

ثم جاء لمحل المنة فقال « ثم عفونا عنكم » وقد رتب هذا العفو بـ « ثم » لأن هذا العفو أعظم من جميع تلك النعم التى سبق عدها ، ففيه زيادة المنة عليهم .

التذكير بنعمة الشريعة

ذكرهم الله بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم ، وانتظام حياتهم ، وتأليف جماعتهم فقال «وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون» البقرة (٥٣) .

هذا مع الإشارة إلى تمام النعمة وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم حتى كانت كتاباً فكانوا به أهل كتاب أي أهل علم تشريع ، والمراد من الكتاب التوراة التي أوتيها موسى ، والفرقان هنا هو المعجزة « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان » الأنبياء (٤٨) .

فالفرقان هو المعجزات ، لأن هارون لم يؤت وحيا وكان محل المنة في قوله : « لعلكم تهتدون » لأن إتيان الشريعة لو لم يكن لاهتدائهم وكان قاصراً على عمل موسى به لم يكن فيه نعمة عليهم .

النعمة بنسخ تكليف شاق عليهم

وقد ذكر نعمة أخرى عليهم هي نعمة نسخ تكليف شديد عليهم كان قد جعل جابراً لما اقترفوه من إثم عبادة الوثن حيث قال «وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم » البقرة (٥٤) .

فقد جعل الله العفو عنهم بدون ذلك التكليف فتمت المنة وبهذا صح جعل هذه منة مستقلة بعد المنة المشار إليها بقوله: « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك » لأن العفو عن المؤاخذة بالذنب في الآخرة قد يحصل مع العقوبة الدنيوية من حد ونحوه وهو حينئذ منة إذ لو شاء الله لجعل الذنب عقابين

دنيوى وأخروى كما كان المذنب هو النفس والبدن ولكن الله برحمته جعل الحدود جوابر فى الإسلام كما فى الحديث الصحيح فلما عفا الله عن بنى إسرائيل على أن يقتلوا أنفسهم فقد تفضل بإسقاط العقوبة الأخروية التى هى أثر الذنب ولما نسخ تكليفهم بقتل أنفسهم فصار منتين .

فقول موسى لقومه إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، تشريع حكم لا يكون منه إلا عن وحى لا عن اجتهاد ، وإن جاز الاجتهاد للأنبياء فإن هذا حكم مخالف لقاعدة حفظ النفوس التى قيل قد اتفق عليها شرائع الله فهو يدل على أنه كلفهم بقتل أنفسهم قتلا حقيقة إما بأن يقتل كل من عبد العجل نفسه فيكون المراد بالأنفس الأرواح التى فى الأجسام فالفاعل والمفعول واحد على هذا ، وإنما اختلفا بالاعتبار كقوله « ظلمتم أنفسكم » .

وإما بأن يقتل من لم يعبدوا العجل عابديه ، فقد أمر الله موسى أن يأمر اللاويين ( الذين هم من سبط لاوى الذى منه موسى وهارون ) أن يقتلوا من عبد العجل بالسيف ، وأنهم فعلوا وقتلوا ثلاثة آلاف نفس ثم استشفع لهم موسى فغفر الله لهم ، وبذلك يكون حكم قتل أنفسهم منسوخاً بعد العمل به ، وكأن المعنى فليقتل بعضكم بعضاً ، ويكون المراد بالأنفس الأشخاص مثل قوله : « فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم » النور (٦١) .

وأخبر الله عن حالهم بقوله : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » ، وبذلك فالفاعل والمفعول متغايران ، والتوبة المشروعة هى قتلهم أنفسهم

وتعبير موسى عليه السلام فى كلامه « فاقتلوا أنفسكم عند بارئكم » أى خالقكم وفيه ما يدل على معنى لفظ البارىء فى العربية كما أن فيه

التحريض على التوبة لأنها رجوع عن المعصية ففيها معنى الشكر، وكون الخلق على مثال متناسب يزيد تحريضاً على شكر الخالق .

وأخبر الله بقبول توبتهم حيث قال «فتاب عليكم» ولتذكيرهم بالنعمة جاء بالفاء للإشارة إلى تعقيب جرمهم بتوبته تعالى عليهم وعدم تأخيرها إلى ما بعد استئصال جميع الذين عبدوا العجل بل نسخ ذلك بقرب نزوله بعد العمل به قليلا ، أو دون العمل به ، وفى ذلك رحمة عظيمة بهم إذ حصل العفو عن ذنب عظيم بدون تكليفهم توبة شاقة بل اكتفاء بمجرد ندمهم وعزمهم على عدم العود لذلك .

وإنما جمع التواب مع الرحيم فى قوله : «إنه هو التواب الرحيم» لأن توبته تعالى عليهم كانت بالعفو عن زلة اتخاذهم العجل وهى زلة عظيمة لا يغفرها إلا الغفار ، وبالنسخ حكم تقدم وذلك رحمة فكان للرحيم موقع عظيم .

نعمة البعث بعد الصعقة

ذكرهم الله بنعمة أخرى نشأت بعد عقاب على جفاء طبع . فمحل المنة والنعمة هو قوله : «ثم بعثناكم» حيث قال الله : «وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون» البقرة (٥٥—٥٦).

والقائلون هم أسلاف المخاطبين وذلك أنهم قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .

والظاهر أن هذا القول وقع منهم بعد العفو عن عبادتهم العجل كما هو ترتيب الآيات ، روى ذلك البغوى عن السدى .

وقيل : إن ذلك سألوه عند مناجاته وأن السائلين هم السبعون الذين

اختارهم موسى للميقات ومعنى لن نؤمن لك يحتمل أنهم توقعوا الكفر إن لم يروا الله تعالى أى أنهم يرتدون فى المستقبل عن إيمانهم الذى اتصفوا به من قبل .

ويحتمل أنهم أرادوا الإيمان الكامل الذى دليله المشاهدة أى إن أحد هذين الإيمانين ينتفى إن لم يروا الله جهرة . لأن لن لنفى المستقبل وليس فى الآية ما يدل على أنهم كفروا حين قولهم هذا ولكنها دالة على عجرفتهم ، وقلة أكتراثهم بما أوتوه من النعم وما شاهدوه من المعجزات حتى راموا أن يروا الله جهرة . وإن لم يروه دخلهم الشك فى صدق موسى .

وليس فى القرآن مايدل على أنهم قالوا ذلك عن كفر . ومعنى « لن نؤمن لك » لن نقر لك بالصدق.

ومعنى « جهرة» أى نراه ظاهراً واضحاً بحاسة أبصارنا ، وعاقبهم الله على ما بدا منهم من العجرفة وقلة الاكتراث بالمعجزات فقال « فأخذتكم الصاعقة » وهذه عقوبة دنيوية لاتدل على أن المعاقب عليه حرام أو كفر لاسيما وقد قدر أن موتهم بالصاعقة لا يدوم إلا قليلا فلم تكن مثل صاعقة عاد وثمود . وبه يعلم أن رؤية الله تعالى مستحيلة ، وأن سؤالها والإلحاح فيه كفر كما زعم المعتزلة،وأن لا حاجة إلى الجواب عن ذلك بأن الصاعقة لاعتقادهم أنه تعالى يشبه الأجسام فكانوا بذلك كافرين إذ لا دليل فى الآية ولا فى غيرها على أنهم كفروا بسؤال الرؤية لموسى عليه السلام .

والصاعقة نار كهربائية من السحاب تحرق من أصابته ، وقد لا تظهر النار ولكن يصل هواؤها إلى الأحياء فيختنقون بسبب مايخالط الهواء الذى يتنفسون فيه من الحوامض الناشئة عن شدة الكهربة .

وقد قيل إن الذى أصابهم نار بدليل قوله : « وأنتم تنظرون » فإن

الصاعقة التى أصابتهم نار الصاعقة لاصوتها الشديد ، لأن الحال دلت على أن الذى أصابهم ما يرى .

أو أن معنى تنظرون تحدقون الأنظار عند رؤية السحاب على جبل الطور طمعاً أن يظهر لهم الله من خلاله ، لأنهم اعتادوا أن الله يكلم موسى كلاماً يسمعه من خلال السحاب .

وقد ماتوا من الصاعقة « ثم بعثنا كم من بعد موتكم وهذا خارق للعادة جعله الله معجزة لموسى استجابة لدعائه وشفاعته .

أو كرامة لهم من تأديبهم إن كان السائلون هم السبعون فإنهم من صالحى بنى إسرائيل .

كيف عوقب السائلون وهم الصالحون ؟ .

نقول بأن هذا عقاب دنيوى وهو ينال الصالحين كما أنه لا ينافى الكرامة ، ونظيره أن موسى سأل رؤية ربه فتجلى الله للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقاً .

فإن قلت إن الموت يقتضى انحلال التركيب المزاجى فكيف يكون البعث بعده فى غير يوم إعادة الخلق ؟

قلت : الموت هو وقوف حركة القلب وتعطيل وظائف الدورة الدموية فإذا حصل عن فساد فيها لم تعقبه حياة إلا فى يوم إعادة الخلق وهو المقصود بقوله تعالى : « لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى » الدخان (٥٦) .

وإذا حصل عن حادث قاهر مانع وظائف القلب من عملها كان للجسد حكم الموت فى تلك الحالة لكنه يقبل الرجوع إن عادت إليه أسباب الحياة بزوال الموانع العارضة .

وقد صار الأطباء اليوم يعتبرون بعض الأحوال التى تعطل عمل القلب اعتبار الموت ويعالجون القلب بأعمال جراحية تعيد إليه حركته والموت بالصاعقة إذ كان عن اختناق أو قوة ضغط الصوت على القلب قد تعقبه الحياة بوصول هواء صاف جديد ، وقد يطول زمن هذا الموت فى العادة ساعات قليلة ولكن هذا الحادث كان خارقا للعادة فيمكن أن يكون موتهم قد طال يوماً وليلة كما ورد فى بعض الأخبار ، ويمكن دون ذلك .

التذكير بنعمة تظليل الغمام ونزول المن والسلوى

لقد ذكرهم الله بقوله « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ( ٥٧ ) .

والظاهر أن تظليلهم بالغمام وقع بعد أن سألوا رؤية الله ، لأن تظليل الغمام وقع محل مناجاة موسى ، ولما سأل بنو إسرائيل الخبز واللحم كان المن ينزل عليهم فى الصباح ، والسلوى تسقط عليهم فى المساء بمقدار مايكفى جميعهم ليومه أو ليلته إلا يوم الجمعة فينزل عليهم منهما ضعف الكمية لأن فى السبت انقطاع النزول ،

والمن مادة صمغية جوية ينزل على شجر البادية شبه الدقيق المبلول ، فيه حلاوة إلى الحموضة ولونه إلى الصفرة ، ويكثر ببوادى تركستان .

وأما السلوى فهو طائر برى لذيذ اللحم سهل الصيد كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضا .

وأخبر القرآن عن أسلافهم « كلوا من طيبات مارزقناكم ، لأن

المخاطبين حين نزول القرآن لم يؤمروا بذلك ثم بين بقوله « وماظلمونا » أنها من أحوال بنى إسرائيل من أن ظلماً قد حصل منهم باتخاذهم العجل :

وانتقل من خطابهم إلى الحديث عنهم لقصد الاتعاظ بحالهم، وتعريضاً بأنهم متمادون على غيهم وليسوا مستفيقين من ضلالهم ، ولا يقرون بأنهم ظلموا أنفسهم ، وهذا الظلم هو ضجرهم من مداومة أكل المن والسلوى حين قالوا لن نصبر على طعام واحد » .

وكان قوله « وما ظلمونا » تعجيلا بتسجيل قساوة شكرهم على نعم الله ، وعنايته بهم ، إذ كانت شكيمتهم لم تلينها الزواجر ولا المكارم .

وفى سورة الأعراف قال تعالى :

« وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »( ١٦٠ )

نجد أن ضمائر الغيبة راجعة إلى قوم موسى . وهذه الآية نظير مافى سورة البقرة سوى اختلاف بضميرى الغيبة فى سورة الأعراف وضميرى الخطاب فى سورة البقرة . لأن مافى سورة البقرة قصد به التوبيخ :

نعمة تمكينهم من دخول القرية وحرمانهم من دخولها

أخبر الله عن هذه بقوله تعالى « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » البقرة (٥٨.٥٩)

وهذا تذكير بنعمة أخرى مكنوا منها فما أحسنوا قبولها ولا رعوها

حق رعايتها فحرموا منها إلى حين . وعوقب الذين تسببوا فى عدم قبولها

وفى التذكير بهذه النعمة امتنان عليهم ببذل النعمة لهم ، لأن النعمة نعمة وإن لم يقبلها المنعم عليه ، وإثارة لحسرتهم على مافات أسلافهم وما لقوه من جراء إعجابهم بآرائهم ، وموعظة لهم أن لا يقعوا فيما وقع فيه الأولون فقد علموا أنهم كلما صرفوا عن قدر حق النعم نالتهم المصائب

قال ابن عطاء الله : من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها . ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .

ولقد علم المخاطبون بما عنته هذه الآية اختصر فيها الكلام اختصارا وترك القرآن كثيراً من المفسرين فيها حيارى فسلكوا طرائق فى انتزاع تفصيل المعنى من مجملها فما أتوا على شيء مقنع ، وتجد أقوالهم هنا إذا التأم بعضها بنظم الآية(١) لايلتئم ببعضه الآخر وربما خالف جميعها ماوقع فى آيات أخر .

والقول المقنع فى هذه الآية أنها أشارت إلى قصة معلومة تضمنتها كتبهم وهى أن بنى إسرائيل لما طوحت بهم الرحلة إلى برية فاران نزلوا بمدينة قادش فأصبحوا على حدود أرض كنعان التى هى الأرض المقدسة التى وعدها الله بنى اسرائيل ، وذلك فى أثناء السنة الثانية بعد خروجهم من مصر فأرسل موسى اثنى عشر رجلا ليتجسسوا أرض كنعان من

---

(١) ذلك أن الآية لم تعين اسم القرية ولا عامل حطة ولا مفعول له وأجملت فى الذين بدلوا وفى القول ماهو ، وفى الذين قيل لهم والقصد من ذلك تجنب ثقل إعادة الأمر المعلوم فإن بنى إسرائيل المخاطبين كانوا يعلمون ذلك والمسلمين بالمدينة كانوا يتلقونه مفصلا عن النبى ﷺ ومن مسلمى أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام .

كل سبط رجل منهم وفيهم يوشع بن نون وكالب بن يفنة ، فصعدوا وأتوا إلى مدينة حبرون فوجدوا الأرض ذات خيرات وقطعوا من عنبها ورمانها وتينها ورجعوا لقومهم بعد أربعين يوما وأخبروا موسى وهارون وجميع بنى اسرائيل وأروهم ثمر الأرض وأخبروهم أنها حقاً تفيض لبناً وعسلا غير أن أهلها ذوو عزة ومدنها حصينة جداً فأمر موسى كالبا فأنصت بنو إسرائيل إلى موسى ، وقال : إننا نصعد ونمتلكها وكذلك يوشع أما العشرة الآخرون فأشاعوا فى بنى إسرائيل مذمة الأرض ، وأنها تأكل سكانها . وأن سكانها جبابرة ، فخافت بنو إسرائيل من سكان الأرض وجبنوا عن القتال فقام فيهم يوشع وكالب قائلين لاتخافوا من العدو فإنهم لقمة لنا والله معنا ، فلم يصغ القوم لهم وأوحى الله لموسى أن بنى إسرائيل أساءوا الظن بربهم وأنه مهلكهم .

فاستشفع لهم موسى فعفا الله عنهم ولكنه حرمهم من الدخول إلى الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون فلا يدخل لها أحد من الحاضرين يومئذ إلا يوشعا وكالبا ، وأرسل الله على الجواسيس العشرة المثبطين وباء أهلكهم ، فهذه الآية تنطبق على هذه القصة تمام الانطباق لاسيما إذا ضمت لها آية سورة المائدة « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » ( ٢١ — ٢٦ )

فقوله « ادخلوا هذه القرية » أنه أرادبها « حبرون » التى كانت قريبة منهم والتى ذهب إليها جواسيسهم وأتوا بثمارها فكلوا منها حيث شئتم رغداً ، إشارة إلى الثمار الكثيرة هناك « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » يتعين أنها إشارة إلى ماأشاعه الجواسيس العشرة من مذمة الأرض وصعوبتها وأنهم لم يقولوا ماقال موسى حيث استنصت الشعب بلسان كالب بن يفنة ويوشع ويدل لذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف « فبدل الذين ظلموا منهم قولا » أى من الذين قيل لهم ادخلوا القرية وأن الرجز الذى أصاب الذين ظلموا هو الوباء الذى أصاب العشرة

الجواسيس ، وينتظم ذلك أيضا مع قوله فى آية المائدة « ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين » .

وقوله : « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا الباب » فإن الباب يناسب القرية « قال فإنها محرمة عليهم » .

فهذا هو التفسير الصحيح المنطبق على التاريخ الصريح فقوله « وإذ قلنا » على لسان موسى فبلغه للقوم بواسطة استنصات كالب بن يفنة وهذا هو الذى يوافق ما فى سورة المائدة فى قوله « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » وعلى هذا فقوله « ادخلوا » أمر بدخول قرية قريبة منهم وهى حبرون ، لتكون مركزا أولا لهم ، والأمر بالدخول أمر بما يتوقف الدخول عليه أعنى القتال .

كما دل عليه قوله « ادخلوا الأرض المقـــدسة » « ولا ترتدوا على أدباركم » فإن الارتداد على الأدبار من الألفاظ المتعارفة فى الحروب كما قال تعالى : « فلما تولوهم الأدبار » .

ولعل فى الإشارة بكلمة « هذه » المفيدة للقرب ما يرجح أن القرية هى حبرون التى طلع إليها جواسيسهم والقرية تطلق على البلدة الصغيرة وعلى المدينة الكبيرة ذات الأسوار والأبواب كما أريد بها هنا بدليل « وادخلوا الباب سجدا » وهو باب القرية والمراد بالسجود عند الدخول الانحناء لإظهار العجز والضعف كيلا يفطن له أهل القرية . وهذا من أحوال الجواسيس ، ويبعد أن يكون السجود المأمور به سجود الشكر لأنهم داخلون متجسسين لا فاتحين .

وقد جاء فى الحديث الصحيح أنهم بدلوا وصية موسى فدخلوا يزحفون على إستهم كأنهم أرادوا إظهار الزمانة فأفرطوا فى التصنع بحيث يكاد أن يفتضح أمرهم لأن بعض التصنع لا يستطاع استمراره .

« وقولوا حطة » وهذا القول كان معروفا فى ذلك المكان للدلالة على العجز ، أو هو من أقوال السؤال والشحاذين كيلا يحسب لهم أهل القرية حسابا ولا يأخذوا حذرا منهم فيكون القول الذى أمروا به قولا يخاطبون به أهل القرية .

وأما من قال من السؤال لغفران الذنوب أى حط عنا ذنوبنا لأن المصدر المراد به الدعاء لا يرتفع على معنى الإخبار وإنما يرتفع إذ قصد به المدح أو التعجب لقربهما من الخبر دون الدعاء . ولا يستعمل الخبر فى الدعاء إلا بصيغة الفعل نحو رحمه الله .

« خطاياكم » أى ذنوبكم ومعاصيكم ثم وعدهم بالزيادة من خيرى الدنيا والآخرة فى قوله « وسنزيد المحسنين » .

وقد بدل العشرة القول الذى أمر موسى بإعلانه فى القوم وهو الترغيب فى دخول القرية . وتهوين العدو عليهم فقالوا لهم لا تستطيعون قتالهم وثبطوهم ، ولذلك عوقبوا فأنزل عليهم رجزاً من السماء وهو الطاعون ، وإنما جعل من السماء لأنه لم يكن له سبب أرضى من عدوى أو نحوها فعلم أنه رمتهم به الملائكة من السماء بأن ألقت عناصره وجراثيمه عليهم فأصيبوا به دون غيرهم ولأجل هذا خص التبديل بفريق معروف عندهم ليس من فعل جميع القوم أو معظمهم ، لأن الآية تذكير لليهود بما هو معلوم لهم من حوادثهم ، وجاء بالظاهر دون المضمر فى قوله « فأنزلنا على الذين ظلموا » فلم يقل عليهم لئلا يتوهم أن الرجز عم جميع بنى إسرائيل وتبديل القول تبديل جميع ما قاله الله لهم وما حدثهم الناس عن حال القرية ، ولذلك بنى فعل قيل للمجهول إيجازا .

وفائدة إظهار لفظ القول دون أن يقال فبدلوه لدفع توهم أنهم بدلوا لفظ حطة خاصة وامتثلوا ما عدا ذلك لأنه لو كان كذلك لكان الأمر هينا .

وقد ورد فى الحديث عن أبى هريرة أن القول الذى بدلوا به أنهم قالوا حبة فى شعرة أو فى شعيرة .

والظاهر أن المراد به أن العشرة استهزأوا بالكلام الذى أعلنه موسى عليه السلام فى الترغيب فى فتح الأرض كمحاولة ربط حبة بشعرة فى التعذر أو هو كآكل حبة مع شعرة تخنق آكلها أو حبة من بر مع شعيرة .

وقوله : « فبدل الذين ظلموا » « فأنزلنا على الذين ظلموا » اعتنى فيهما بالإظهار فى موضع الإضمار ليعلم أن الرجز خص الذين بدلوا القول وهم العشرة الذين أشاعوا مذمة الأرض لأنهم كانوا السبب فى شقاء أمة كاملة وفى هذا موعظة وذكرى لكل من ينصب نفسه لإرشاد قوم ليكون على بصيرة بما يأتى ويذر وعلم بعواقب الأمور فمن البر ما يكون عقوقا . وفى المثل [ على أهلها جنت براقش ] وهى اسم كلبة قوم كانت تحرسهم بالليل فدل نبحها أعداءهم عليهم فاستأصلوهم فضربت مثلا .

المقارنة بين آية سورة البقرة وسورة الأعراف

« وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون » الأعراف ( ١٦١ — ١٦٢ ) .

١ — قد أسند فعل « قيل » فى قوله « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية » إلى المجهول .

وأسند فى سورة البقرة إلى ضمير الجلالة « وإذ قلنا » لظهور أن هذا القول لا يصدر إلا من الله تعالى .

٢ — فى هذه الآية عبر بقوله « اسكنوا » وفى سورة البقرة « ادخلوا »

لأن القولين قيل لهم أى قيل لهم ادخلوا واسكنوها ففرق ذلك على القصتين على عادة القرآن فى تغيير أسلوب القصص استجدادا لنشاط السامع

٣ — اختلاف التعبير فى قوله هنا « كلوا » وقوله فى سورة البقرة « فكلوا » فإنه قد قيل لهم بما يرادف فاء التعقيب كما جاء فى سورة البقرة لأن التعقيب معنى زائد على مطلق الجمع الذى تفيده واو العطف واقتصر هنا على حكاية أنه قيل لهم ، وكانت آية البقرة أولى بحكاية ما دلت عليه فاء التعقيب لأن آية البقرة سيقت مساق التوبيخ فناسبها ما هو أدل على المنة وهو تعجيل الانتفاع بخيرات القرية .

وآيات الأعراف سيقت لمجرد العبرة بقصة بنى إسرائيل .

٤ — لأجل هذا الاختلاف ميزت آية البقرة بإعادة الموصول وصلته فى قوله « فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا » .

وعوض عنه هنا بضمير الذين ظلموا لأن القصد فى آية البقرة بيان سبب إنزال العذاب عليهم مرتين أشير إلى أولاهما بما يومىء إليه الموصول من علة الحكم وإلى الثانية بحرف السببية واقتصر هنا على الثانى .

٥ — وقد وقع فى سورة البقرة لفظ « فأنزلنا » ووقع هنا لفظ فأرسلنا ولما قيد كلاهما بقوله من السماء كان مفادهما واحدا فالاختلاف لمجرد التفنن بين القصتين .

٦ — عبر هنا « بما كانوا يظلمون » وفى البقرة « بما كانوا يفسقون » لأنه لما اقتضى الحال فى القصتين تأكيد وصفهم بالظلم وأدى ذلك فى البقرة بقوله « فأنزلنا على الذين ظلموا » اشتثقلت إعادة لفظ الظلم هنالك ثالثة فعدل عنه إلى ما يفيد مفاده وهو الفسق وهو أيضا أعم فهو

أنسب بتذييل التوبيخ ، وجيء هنا بلفظ « يظلمون » لئلا يفوت تسجيل الظلم عليهم مرة ثالثة ، فكان تذييل آية البقرة أنسب بالتغليظ في ذمهم لأن مقام التوبيخ يقتضيه .

٧ — وقع في هذه الآية « فبدل الذين ظلموا منهم » ولم يقع لفظ « منهم » في سورة البقرة .

ووجه زيادتها هنا التصريح بأن تبديل القول لم يصدر من جميعهم ، وأجمل ذلك في سورة البقرة لأنها لما سيقت مساق التوبيخ ناسب إرهابهم بما يوهم أن الذين فعلوا ذلك هم جميع القوم لأن تبعات بعض القبيلة تحمل على جماعتها ،

٨ — وقدم في سورة البقرة قوله « وادخلوا الباب سجدا » على قوله « وقولوا حطة » .

وعكس هذا وهو إختلاف في الإخبار لمجرد التفنن فإن كلا القولين واقع قدم أو أخر .

وذكر في البقرة « وكلوا منها حيث شئتم رغداً » ولم يذكر وصف رغداً هنا ، وإنما حكى في سورة البقرة لأن زيادة المنة أدخل في تقوية التوبيخ .

٩ — جملة « سنزيد المحسنين » مستأنفة إستئنافا بيانياً لأن قوله « نغفر لكم » في مقام الامتنان بإعطاء نعم كثيرة مما يثير سؤال سائل يقول وهل الغفران هو قصارى جزائهم ؟

فأجيب بأن بعده زيادة الأجر على الإحسان أي على الامتثال .

وفي نظير هذه الآية من سورة البقرة ذكرت جملة « سنزيد المحسنين » معطوفة بالواو على تقدير قلنا لهم ذلك وقلنا لهم سنزيد المحسنين ، فالواو

هنالك الحكاية الأقوال فهى من الحكاية لا من المحكى أى قلنا وقلنا سنزيد .

١٠ « خطيئاتكم » بصيغة جمع المؤنث السالم وفى سورة البقرة « خطاياكم » بصيغة جمع التكسير والاختلاف بينهما تفنن فى حكاية القصة .

## نعمة الرى من العطش

« وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » البقرة (٦٠) .

لقد ذكرهم بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم وهى :

١ — الرى من العطش ، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام ولذلك شاع التمثيل برى الظمآن فى حصول المطلوب .

٢ — وكون السقى فى مظنة عدم تحصيله وتلك معجزة لموسى وكرامة لأمته ، لأن فى ذلك فضلا لهم .

٣ — وكون العيون اثنتى عشرة ليستقل كل سبط بمشرب فلا يتدافعوا ، وقد أشارت الآية إلى حادثة معروفة عند اليهود وذلك أنهم لما نزلوا فى ( رفيديم ) قبل الوصول إلى برية سينا .

وبعد خروجهم من برية سين فى حدود الشهر الثالث من الخروج عطشوا ، ولم يكن بالموضع ماء فتذمروا على موسى وقالوا : أتصعدنا من مصر لنموت وأولادنا ومواشينا عطشا فدعا موسى ربه فأمره الله أن يضرب بعصاه صخرة هناك فى ( حوريب ) فضرب فانفجر منها الماء ، ولم تذكر التوراة أن العيون اثنتا عشرة عينا .

وذلك التقسيم من الرفق بهم لئلا يتزاحموا مع كثرتهم فيهلكوا فهذا مما بينه الله فى القرآن فقوله « استسقى موسى » صريح فى أن طالب السقى هو موسى وحده سأله من الله تعالى ، ولم يشاركه قومه فى الدعاء لتظهر كرامته وحده ، وكذلك كان استسقاء النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر لما قال له الأعرابى هلك الزرع والضرع فادع الله أن يسقينا والحديث فى الصحيحين .

وقوله « لقومه » مؤذن بأن موسى لم يصبه العطش ، وذلك لأنه خرج فى تلك الرحلة موقنا أن الله حافظهم ومبلغهم إلى الأرض المقدسة فلذلك وقاه الله أن يصيبه جوع أو عطش وكلال ، وكذلك شأن الأنبياء فقد قال النبى ﷺ فى حديث وصال الصوم « إنى لست كهيئتكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » .

وعصا موسى هى التى ألقاها فى مجلس فرعون فتلقفت ثعابين السحرة وهى التى كانت فى يد موسى حين كلمه الله فى برية سينا قبل دخوله مصر . وأمره أن يضرب بها أى حجر شاء أو مشيراً له إلى حجر عرفه موسى بوحى من الله وهو حجر صخرفى جبل حوريب الذى كلم الله منه موسى، فضرب موسى فانفجرت .

وذلك لأن الانفجار مترتب على قوله تعالى لموسى « اضرب بعصاك الحجر » لظهور أن موسى ليس ممن يشك فى امتثاله بل ولظهور أن كل سائل أمراً إذا قيل له افعل كذا أن يعلم أن ما أمر به هو الذى فيه جوابه .

وقد علم كل سبط من الأسباط مشربهم ، وجمع بين الأكل والشرب فى قوله «كلوا واشربوا » ، وأن كان الحديث على السقى ، لأنه قد تقدمه إنزال المن والسلوى كما أن هناك « وكلوا من طيبات مارزقناكم » فلما شفع ذلك بالماء اجتمع المنتان .

ثم قيل لهم « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » ووجه النهى أن النعمة قد تنسى العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع فى الفساد .

قال تعالى « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » العلق (٦ ، ٨) .

## سوء إختيارهم فى شهواتهم دليل إنقلاب أحوالهم

« وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها و بصلها قال اتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ماسألتم » البقرة (٦١) .

إنتقل من تعداد النعم المعقبة بنعم أخرى إلى بيان سوء إختيارهم فى شهواتهم والاختيار دليل عقل اللبيب ، وإن كان يختار مباحا مع ما فى صيغة طلبهم من الجفاء وقلة الأدب مع الرسول ومع النعم إذ قالوا لن نصبر فعبروا عن تناول المن والسلوى بالصبر المستلزم الكراهية وأتوا بما دل عليه لن فى حكاية كلامهم من أنهم لا يتناولون المن والسلوى من الآن فإن لن تدل على إستغراق النفى لأزمنة فعل نصبر من أولها إلى آخرها وهو معنى التأبيد ، وفى ذلك إلجاء لموسى أن يبادر بالسؤال يظنون أنهم أيأسوه من قبول المن والسلوى بعد ذلك الحين ، فكان جواب الله لهم فى هذا المطلب أن قطع عنايته بهم وأهملهم ووكلهم إلى نفوسهم ، ولم يرهم ما عودهم من إنزال الطعام وتفجير العيون بعد فلق البحر وتظليل الغمام بل قال لهم « أهبطوا مصرا » فأمرهم بالسعى لأنفسهم وكفى بذلك تأديباً وتوبيخا .

والقصد من هذا أن ينتقل من تعداد النعم إلى بيان تلقيهم لها بالاستخفاف فينتقل من ذلك إلى ذكر إنقلاب أحوالهم وأسباب خذلانهم ، وليس شىء من ذلك بمقتضى كون السؤال معصية فإن العقوبات الدنيوية

وحرمان الفضائل ليست من آثار خطاب التكليف ولكنها من أشباه خطاب الوضع ترجع إلى ترتب المسببات على أسبابها وذلك من نظام العالم ، وإنمـــا الذى يدل على كون الجزى عليه معصية هو العذاب الأخروى وقد أشارت الآية إلى قصة ذكرتها التوراة مجملة منتثرة، وهى أنهم لما ارتحلوا من برية سينا من ( حوريب ) ونزلوا فى برية ( فاران ) فى آخر الشهر الثانى من السنة الثانية من الخروج سائرين إلى جهات ( حبرون ) فقالوا تذكرنا السمك الذى كنا نأكله بمصر مجاناً ( أى يصطادونه بأنفسهم ) والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم .

وقد يبست نفوسنا فلا نرى إلا هذا المن فبكوا فغضب الله عليهم وسأله موسى العفو فعفا عنهم وأرسل عليهم السلوى فادخروا منها طعام شهر كامل .

وأفادت « لن » شدة الضجر وبلوغ الكراهية منها حدها الذى لاطاقة عنده ، ووصفوا الطعام بواحد وإن كان هو شيئين المن والسلوى لأن المراد أنه متكرر كل يوم .

« يخرج لنا » إشارة إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه حتى كان إخراج ما تنبت الأرض يحصل بمجرد دعاء موسى ربه ، كأنه قيل إن تدع ربك بأن يخرج لنا يخرج لنا ، وكأن الأمر فى مكنة موسى فإذا لم يفعل فقد شح عليهم بما فيه نفعهم .

« وفومها » والفوم هو الثوم وقيل الحنطة أو الفوم الحمص بلغة أهل الشام .

ورد عليهم موسى بقوله « قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » وهو توبيخ شديد لهم وفى الاستبدال للخير بالأدنى النداء بنهاية حماقتهم وسوء اختيارهم .

وأباح لهم النزول مع التوبيخ إلى مصر من الأمصار فى قوله «اهبطوا مصرا» وفيه إعراض عن طلبهم إذ ليس حولهم يومئذ بلد قريب يستطيعون وصوله .

أو ارجعوا إلى مصر التى خرجتم منها ، وهو توبيخ إذ لا يمكنهم الرجوع إلى مصر ويكون قول موسى لهم قصد منه التهديد على تذكرهم أيام ذلهم وعنائهم فارجعوا إلى ما كنتم فيه إذ لم تقدروا قدر الفضائل النفسية ، ونعمة الحرية والاستقلال :

## نتيجة النعم

« وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » البقرة (٦١) .

فكانت تلك هى النتيجة والأثر لما من الله به عليهم من نعمة تحريرهم من استعباد القبط إياهم وسوقهم إلى الأرض التى وعدهم فتضمن ذلك نعمتى التحرير والتمكين فى الأرض ، وجعل الشجاعة طوع يدهم لو فعلوا فلم يقدروا قدر ذلك وتمنوا العود إلى المعيشة فى مصر إذ قالوا لن نصبر على طعام واحد وتقاعسوا عن دخول القرية ، وجبنوا عن لقاء العدو ، فلا جرم إذ لم يشكروا النعمة ولم يقدروها أن تنتزع منهم ويسلبوها ويعوضوا عنها بضدها وهو الذلة المقابلة للشجاعة إذ لم يثقوا بنصر الله إياهم ، والمسكنة وهى العبودية فكل من لم يشكر النعمة فهو جدير بأن تسلب منه ويعوض بضدها قال تعالى «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل» سبأ (١٦) .

وقد ضربت الذلة والمسكنة على جميع بنى إسرائيل لا إلى خصوص الذين أبوا دخول القرية والذين قالوا لن نصبر على طعام واحد بدليل قوله «ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق» فإن الذين قتلوا النبيين هم الذين أبوا دخول القرية وقالوا لن نصبر على طعام واحد ، وشمول المخاطبين على طريقة التعريض وهو لزوم توارث الأبناء أخلاق الآباء وشمائلهم ، والذلة ضد العزة ، والمسكنة هى الفقر مشتقة من السكون لأن الفقر يقلل حركة صاحبه وتطلق على الضعف .

ومعنى لزوم الذلة والمسكنة لليهود أنهم فقدوا البأس والشجاعة وبدا عليهم سيما الفقر والحاجة مع وفرة ماأنعمه الله عليهم فإنهم لما سئموها صارت لديهم كالعدم ولذلك صار الحرص لهم سجية باقية فى أعقابهم .

ولما كانت الذلة والمسكنة والغضب مما لايشاهد أشار إلى مضمون الكلام وهو شيء واحد أى مذكور ومعقول أى ذلك القصص السابق وكفرهم ومامعه كان سببا لعقابهم فى الدنيا بالذلة والمسكنة وفى الآخرة بغضب الله ، وفيه تحذير من الوقوع فى مثل ماوقعوا فيه وقد اقترف أجيال اليهود جريمة قتل الأنبياء بغير الحق ، سواء من باشر القتل وأمر به ومن سكت عنه ولم ينصر الأنبياء

وقد قتل اليهود من الأنبياء أشعياء بن أموص الذى كان حيا فى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، قتله الملك منسى ملك اليهود سنة ٧٠٠ ق م نشره على جذع شجرة .

وأرميا النبى الذى كان حيا فى أواسط القرن السابع ق م وذلك لأنه أكثر التوبيخات والنصائح لليهود فرجموه بالحجارة حتى قتلوه .

وزكريا الأخير أبا يحيى قتله هيردوس العبرانى ملك اليهود من قبل

الرومان لأن زكريا حاول تخليص ابنه يحيى من القتل وذلك فى مدة نبوة عيسى .

ويحيى بن زكريا قتله هيردوس لغضب ابن أخت هيردوس على يحيى .

## إقامة الحجة على اليهود والنصارى

قوله تعالى « بغير الحق » أى بدون وجه معتبر فى شريعتهم فإن فيها « أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » المائدة (٣٢) .

وهذا القيد من الاحتجاج على اليهود بأصول دينهم لتخليد مذمتهم ، وإلا فإن قتل الأنبياء لايكون بحق فى حال من الأحوال ،

وإنما قال الأنبياء لأن الرسل لاتسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف لحكمة الرسالة التى هى التبليغ قال تعالى « إنا لننصر رسلنا » غافر (٥١) وقال تعالى « والله يعصمك من الناس » المائدة (٦٧) .

ومن ثم كان ادعاء النصارى أن عيسى قتله اليهود ادعاء منافيا لحكمة الإرسال ولكن الله أنهى مدة رسالته بحصول المقصد مما أرسل إليه .

والعصيان والاعتداء سببان آخران لضرب الذلة والمسكنة ولغضب الله تعالى عليهم .

## وجه تسمية اليهود وتفرقهم فى الأقطار ووجه تسمية النصارى

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » البقرة ٦٢ .

# قائمة المراجع


١ ـ البحر المحيط : محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ٧٤٥ هـ

٢ ـ التحرير والتنوير لابن عاشور

٣ ـ الكشاف . محمود بن عمر الزمخشري ٥٣٨ هـ

٤ ـ الجامع لأحكام القرآن القرطبي ٦٧١ هـ

٥ ـ أحكام القرآن للجصاص ٣٧٠ هـ

٦ ـ أحكام القرآن لابن العربي محمد بن عبد الله الأندلسي ٥٤٣ هـ

٧ ـ روح المعاني محمود بن شكري الألوسي ١٢٧٠ هـ

٨ ـ محاسن التأويل جمال الدين القاسمي ١٣٣٢ هـ

٩ ـ مفاتيح الغيب محمد بن فخر الرازي ٦٠٦ هـ

١٠ ـ جامع البيان في تفسير القرآن محمد بن جرير الطبري ٣١٠ هـ

١١ ـ فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ١٢٥٠ هـ

١٢ ـ تفسير القرآن العظيم أبو الفداء إسماعيل بن كثير ٧٧٤ هـ

١٣ ـ زاد المسير في علم التفسير أبي الفرج بن الجوزي ٥٩٧ هـ

١٤ ـ قصص الأنبياء للشيخ النجار

١٥ ـ فتح الباري لابن حجر العسقلاني

١٦ ـ كتب السنة كصحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن الترمذي وبعض كتب التفاسير الأخرى

# فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحه |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

رقم الإيداع بدار الكتب
٧٩٠٩ / ١٩٩١ م
I.S.B.N. 977 - 00 - 2177 - 6